

روايات مصرية للجيب
5
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
الجاسوس

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حـروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنـهارًا .

ولكـن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بـها سوى أصحابـها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

صفحات من تاريخ الجاسوسية

العملية السويسرية

العملية السويسرية ..

منذ سطع نجم (أدولف هتلر) فى (ألمانيا) ، عقب فوزه الساحق فى انتخابات الحزب النازى عام ١٩٢٩م ، بدأ صيته ينتشر ، فى (أوروبا) كلها ، وبخاصة مع خطبه الحماسية ، التى التهبت بها عقول وقلوب الشباب ، ليس فى دولته وحدها ، ولكن فى عدة دول أوروبية محيطة ، على نحو أثار الكثير من القلق السياسى والعسكرى ، خاصة وأن المحللين قد تنبأوا بأن شخصًا مثله ، لا يمكن أن يهدأ له بال ، قبل أن يبسط نفوذه على رقعة واسعة من (أوروبا) ، ولا بد أن يسعى حتمًا للخروج من معاهدة (فرساى) ، التى أذلت ناصية (ألمانيا) ، وسحقت روحها المعنوية ، إثر هزيمتها المؤلمة ، فى الحرب العالمية الأولى ..

وفى عام ١٩٣٢م ، تقدَّم (هتلر) لترشيح نفسه ، كرئيس مقبل لدولته ، إلا أنه ، وعلى الرغم من أسلوبه الدعائى الجديد ، لم ينجح فى هزيمة (هندنبورج) ، الذى صار رئيسًا للبلاد ، فى نفس الوقت الذى حصل فيه حزب (هتلر) النازى ، على أكبر عدد من مقاعد (الرايشستاج) ..

ووفقًا للنظام الدستورى والنيابى ، كان من المحتم على (هندنبورج) ، أن يمنح (هتلر) رياسة الوزراء ، على الرغم من اختلافه التام معه ، شخصيًّا وأيدلوجيًّا ..

ومنذ اللحظة الأولى ، التى استقرّ فيها (هتلر) ، على مقعد رياسة الوزراء ، بدأ سياسة قمعية مخيفة ، واتهم الشيوعيين ورجال الأعمال اليهود ، بأنهم المسئولون عن هزيمة (ألمانيا) ، فى الحرب العالمية الأولى ، وبدأ فى اضطهادهم واعتقالهم بلا رحمة ، وأنشأ السجون والمعتقلات ، وصنع جهاز (الجستابو) ، وجهاز (إس . دى) ، بقيادة الجنرال (هملر) ، وأطلق أبواق دعايته ، من خلال وزارة الدعاية ، التى رأسها (جوزيف جوبلز) ، أشهر من تعامل مع كل أنواع الدعايات والشائعات فى التاريخ ..

ثم بدأ يبنى جيشه ، ويدعم قوته ، على نحو لم تعرفه (أوروبا) من قبل قط ..

ومن المصانع الألمانية ، خرجت عشرات الأسلحة والمعدات .. دبابات .. طائرات .. مدرعات .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ..

وتكوَّنت قوات العاصفة ، التى استعد شبابها للموت فى سبيل (هتلر) ، قبل أن يكون هذا فى سبيل (ألمانيا) ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يطيح (هتلر) بمنافسه (هندنبورج) ، فى انتخابات الرياسة التالية ، وأن يصبح رئيس (ألمانيا) ، ورئيس وزرائها ، وقلبها النابض بالحماسة والقوة أيضًا ..

والعجيب أن (أوروبا) كلها قد رأت هذا وتابعته ..

ولم يتحرك أحد ..

الكل اكتفى بالمراقبة والمتابعة ، فى حذر متوتر ، مع تساؤل كبير ، عما يمكن أن يقدم عليه (هتلر) ، فى المرحلة التالية ؟!

وكان من الطبيعى أن يروق هذا للزعيم (أدولف هتلر) ، وأن يتوافق مع هواه ، ومع رغبته فى بناء قوته ، وتنظيم جيوشه ، التى راحت تنمو .. وتنمو .. وتنمو ..

ولكن فجأة ، وفى ذروة ما يحدث ، وبينما يبذل الكل قصارى طاقاتهم ، لبناء (ألمانيا النازية) ، والرايخ الثالث القوى ، اقتحم (هملر) مكتب الفوهلر ، بكل توتر الدنيا ، وهو يلوح بكتاب فى يده ، هاتفًا :

ـ كارثة أيها الفوهلر العظيم .. كارثة .

انعقد حاجبا (هتلر) فى شدة ، وارتسم على وجهه كل توتر الدنيا ، وهو يقول :

ـ أية كارثة يا جنرال ؟!

وضع قائد (الجستابو) الكتاب ، أمام الفوهلر ، وهو يقول فى عصبية :

ـ صحفى سويسرى ، كشف كل تنظيمات جيوشنا .

هتف (هتلر) ، وجسده ينتفض فى عنف :

ـ كشف ماذا ؟!

تابع (هملر) ، بكل غضب الدنيا :

ـ ليس هذا فحسب ، وإنما نشر كل التفاصيل فى كتاب ، طرحه للبيع للعامة ، فى المكتبات ودور الصحف .

ولقد كتب (هملر) فى مذكراته ، أنه لم ير (هتلر) أشد انزعاجًا ـ فى تلك الفترة ـ منه عندما سمع هذا الخبر ، حتى إن عينيه قد اتسعتا عن آخرهما ، وبدا أشبه بالشارد المصدوم ، وهو يحدق فى الفراغ لبعض الوقت ، قبل أن يتساءل بصوت مختنق ، على الرغم من محاولته الحفاظ على صرامته المعهودة :

ـ وكيف حصل على كل هذه المعلومات ؟!

اعتدل (هملر)، وهزَّ رأسه فى توتر، قائلاً:

ـ لا أحد يدرى !!

تراجع (هتلر) فى مقعده ببطء، وظلَّ يحدِّق فى وجه (هملر) بضع لحظات، قبل أن تستعيد ملامحه صرامتها الحقيقية، التى بدت واضحة فى صوته، وهو يضرب سطح المكتب براحته، هاتفًا:

ـ أريد ذلك الصحفى يا (هملر) .. أريده هنا بأسرع وسيلة ممكنة .. هل تفهم ؟!

شدَّ (هملر) قامته، وأجاب بمنتهى الحزم والحسم:

ـ أفهم أيها الفوهلر .. أفهم تمامًا ..

وكرجل جستابو ومخابرات محنَّك، بدأ (هملر) تحركاته، فور مغادرته مكتب الزعيم (أدولف هتلر)، مباشرة ..

وبعد مرور ساعة واحدة، كان قد أصدر أوامره بالقيام بعمليتين سويسريتين، فى آن واحد ..

العملية الأولى، التى أطلق عليها اسم (صائد الفئران)، كانت تقتصر على جمع كل نسخ كتاب الصحفى (برتولد جاكوب)، من أسواق (سويسرا) و(أوروبا)، على نحو دقيق مدروس، وبأسرع وسيلة ممكنة ..

أما العملية الثانية، والتى حملت اسم (العملية السويسرية)، فكانت تخص الصحفى (برتولد جاكوب) نفسه ..

كان الهدف منها معرفة الوسيلة، التى جمع بها كل ما لديه من معلومات، عن الجيش النازى، ومواقعه، وتفاصيله الدقيقة ..

ووفقًا لخطة (هملر)، لم تكن هناك سوى وسيلة واحدة، للحصول على الحقائق الكاملة من الصحفى السويسرى، ألا وهى استجوابه بالوسائل الألمانية النازية، المعروفة فى ذلك الوقت ..

وهذا لا يمكن أن يتحقَّق إلا بوسيلة واحدة ..

إحضار الصحفى إلى (ألمانيا) ..

أو بمعنى أدق .. اختطافه ..

وعلى الرغم من أن (سويسرا) دولة محايدة، وظلت على حيادها، قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، لم يتردَّد (أدولف هتلر) لحظة واحدة، فى الموافقة على تنفيذ العملية السويسرية ..

وفورًا ..

وفى مساء اليوم نفسه ، سافر اثنان من رجال جهاز المخابرات النازى (إس ـ دى) ، إلى (سويسرا) وهما يحملان حقيبة ضخمة ، حوت بعض الملابس والمعدات البسيطة لكليهما ..

والواقع أن عملية اختطاف (جاكوب) هذه لم تمثل أية صعوبة ، بالنسبة لاثنين من رجال (إس . دى) المدربين ..

فالصحفى لم يكن يتوقع ، أو حتى يتخيّل عملية اختطاف فى قلب بلد محايد رسميًا وفعليًا مثل (سويسرا) ، ثم إن الزمن لم يكن زمن حرب من الناحية الرسمية على الأقل ..

لذا ، فلم تغرب شمس اليوم التالى ، حتى كان (جاكوب) فى طريقه إلى (ألمانيا) داخل تلك الحقيبة الكبيرة ..

وقبل أن تشرق الشمس مرة أخرى ، كان يرتجف ، بكل رعب الدنيا ، داخل مقر المخابرات الألمانى ، المعروف باسم (بيت الثعالب) ، فى مواجهة أخطر رجل فى الرايخ الثالث ، بعد (أدولف هتلر) مباشرة ..

وفى صرامة وحشية ، سأله (هملر) :

ـ كيف حصلت على تلك المعلومات ، التى نشرتها فى كتابك ؟!

حدّق فيه (جاكوب) بدهشة مذعورة ، وهو يتساءل :

ـ أى كتاب ؟!

لم يكد السؤال يتجاوز شفتيه ، حتى هوت لكمة قوية على أنفه ، وثانية على فكه مع ثلاث صفعات متوالية على وجهه ، جعلت رأسه يدور فى عنف ، والدماء تغمر وجهه كله ، فهتف وهو يبصق الدم ، من بين أسنانه المحطمة :

ـ أى كتاب ؟! أقسم إننى أتساءل بصدق .

زمجر (هملر) بغضب هادر ، وهو يصرخ فى وجهه :

ـ الكتاب الذى كشفت فيه ، كل أسرار الجيش النازى العظيم .

حمل صوت (جاكوب) كل دهشة الدنيا ، وهو يهتف :

ـ أسرار ؟! لم أتصوّر لحظة واحدة أنها أسرار .

زمجر (هملر) مرة أخرى ، واستعدّت القبضات القوية لتهوى على وجه الصحفى المسكين مرة أخرى ، فهتف فى ارتياع :

ـ لم أتصوّر هذا ؛ لأننى جمعتها من الصحف .. صحفكم الألمانية ..

صاح فيه (هملر) فى شراسة :

ـ أى قول أحمق هذا .. هل تحاول إقناعى بأننا ننشر أسرارنا العسكرية ، على صفحات صحفنا .

هتف (جاكوب) فى رعب :

ـ ليس كل الصفحات ، بل صفحة واحدة فقط .

ردَّد (هملر) فى عصبية :

ـ صفحة واحدة ؟!

أجابه (جاكوب) ، فى لهجة أقرب إلى البكاء ، من فرط الرعب والارتياع :

ـ نعم .. صفحة الوفيات ..

وكان جوابه صدمة حقيقية ..

صدمة عنيفة للجميع ..

وبالذات للفوهلر (أدولف هتلر) ، الذى هتف مستنكرًا ، فور سماعه :

ـ صفحة الوفيات ؟! هل يدّعى أنه قد حصل على أسرار

جيشنا العظيم ، من خلال صفحة الوفيات ؟! هل يتصوَّر أن بمقدوره خداعنا ، بهذا الجواب الساذج ؟!

تنحنح (هملر) فى حرج وتوتر ، قبل أن يجيب :

ـ الواقع أن جوابه حقيقى تمامًا أيها الفوهلر العظيم ، ولقد تأكدنا من هذا بأنفسنا .

تراجع (هتلر) كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ وكيف هذا ؟!

التقط (هملر) نفسًا عميقًا ، ليجيب فى أسف :

ـ صفحات الوفيات كانت تحمل الكثير من المعلومات بالغة الخطورة ، والتى تمضى من تحت أنوفنا ، دون أن نشعر بمرورها ، ففى نعى ما ، تكتب الفصيلة رقم كذا ، المتمركزة فى منطقة كذا ، أنها تنعى شقيق قائدها الكولونيل فلان ، الذى لقى مصرعه فى حادث طريق مؤلم ، وفى نعى آخر يتقدَّم الجنرال فلان ، قائد الكتيبة رقم كذا ، والموجود فى منطقة كذا ، عزاءه البالغ لضابطه علاَّن ، لوفاة أمه .. وهكذا .. عشرات المعلومات العسكرية ، يتم نشرها كل يوم ، فى صفحات الوفيات ، دون أن يدرك أصحابها أنفسهم مدى خطورتها .

لوّح (هتلر) بيده ، قائلاً فى غضب :

ـ وما دام صحفى مثل (برتولد جاكوب) هذا قد أمكنه جمعها ، فما الذى يمنع العدو من المثل ؟!

أشار (هملر) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط ..

ضم (أدولف هتلر) قبضتيه ، وأسند ذقنه عليهما لبعض الوقت ، وهو يعيد التفكير فى الموقف كله مرة ، ومرة .. ومرات ، قبل أن يرفع عينيه إلى (هملر) ، قائلاً فى خشونة صارمة ، تحمل نبرة غضب واضحة :

ـ لا بد أن نستفيد من الدرس يا جنرال .. وبسرعة .

أومأ (هملر) برأسه ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد أيها الفوهلر العظيم .. بالتأكيد .

والواقع أن (هملر) قد استفاد كثيرًا من درس كتاب (برتولد جاكوب) ..

بل وكل أجهزة المخابرات قد استفادت به من بعده ..

فمنذ ذلك اليوم ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، لم يعد مسموحًا للجهات العسكرية بنشر أية تفاصيل ، فى صفحات الوفيات بالصحف ، أو حتى فى أية صفحات أخرى ، إلا بعد الرجوع إلى جهة مسئولة ، هى المخابرات الحربية فى الغالب ..

بل إن بعض الدول لم تعد تسمح بنشر أى نعى عسكرى ، من أية جهة عسكرية ، أو ذكر ما يزيد على رتبة المتوفى ، فى حالات محدودة جدًّا ..

ليس هذا فحسب ، ولكن (هملر) استفاد بالدرس إلى حد يتجاوز هذا بكثير ..

وكثير جدًّا أيضًا ..

لقد أدرك كم يفيد الاطلاع على كتب الخصم ، وأخباره ، وصحفه ، وحتى صفحات وفياته ..

ومنذ ذلك الحين ، أصبح هذا أساسًا من أسس عمل المخابرات ، فى كل دول العالم ، من أقصاه إلى أقصاه ، أن يتمّ الحصول على كل ما يصدر فى الدول المحيطة ، العدوّة أو الصديقة ، من صحف ومجلات وكتب ، وأخبار ..

ولقد حقّق هذا الأسلوب نجاحًا منقطع النظير ، خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، وبعده ، وحتى لحظة كتابة هذه

السطور ، حتى إنه هناك سباق دائم ، للحصول على الطبعات الأولى من الصحف ، عبر عمال المطارات ، فى مختلف أنحاء العالم ..

والأهم من كل هذا وذاك ، أن (هملر) قد أدرك أهمية المعلومات ، فى حروب الدعاية الحديثة ، مما جعله ينشئ ما عُرف باسم (مخابرات الدعاية) ، أى المخابرات المسئولة عن جمع المعلومات ، لتوظيفها فى خدمة الدعاية والحرب النفسية ..

وهكذا ، اعتبر عام ١٩٣٥ ، وهو علم (العملية السويسرية) ، نقطة تحول واضحة وقوية ، فى مسار نظم الاستخبارات العالمية ، انطلاقًا من التطورات التى قام بها (هملر) ، والتى كان لها أكبر الأثر ، فى التأثير على الروح المعنوية البريطانية والفرنسية ، من خلال استغلال وزير الدعاية (جوبلز) لها ، فى ما يبثه من إذاعات موجَّهة ، وما يلقيه من منشورات قوية ..

أما (برتولد جاكوب) نفسه ، فقد تم الإفراج عنه ، وإعادته إلى (سويسرا) ، بعد أن حصل على تعويض سخى ، من جهاز (الجستابو) النازى ، وربما كان أول وآخر من يحصل على مثل هذا التعويض ، فى تاريخ جهاز الأمن الألمانى كله ..

ولكن التعويض كان مصحوبًا بجملة مهمة جدًا ..

جملة وجَّهها إليه (هملر) شخصيًا ، وهو يقول :

ـ المال يحتاج إلى شخص حى لينفقه ، ويستمتع به .. هل تفهمنى جيدًا يا هر (جاكوب) ..

وفهم (جاكوب) جيدًا ..

وأطبق شفتيه تمامًا ..

وطوال السنوات العشر ، من ١٩٣٥م ، وحتى ١٩٤٥م ، لم ينبس (برتولد جاكوب) بحرف واحد ، عما حدث له ، فى قلب (ألمانيا) النازية ..

الخوف جعله يطبق شفتيه ، ويمسك لسانه ، و ...

ولكنه لحتفظ بنسختين من كتابه ، الذى تسبَّب فى لختطافه ..

الكتاب الذى يحوى كل أسرار الجيش النازى ..

وحرصًا على ضمان السرية ، تم تغيير مواقع كل قوات الجيش النازى ، قبل أن تبدأ الحرب الفعلية ، عام ١٩٣٩م

وكانت نجاحاته واكتساحاته لجيوش (أوروبا) مضرب الأمثال ..

ولكن ديكتاتورية (هتلر) لم تصمد أم الحلفاء ..

وبدأ الجيش النازى ينهزم .. وينهزم .. وينهزم ..

وفى عام ١٩٤٥م ، سقطت (ألمانيا) ، وانتحر (هتلر) ، وانمحى من الوجود تمامًا الرايخ الثالث .. والأخير ..

وفى أوائل عام ١٩٤٦م ، نشر (برتولد جاكوب) قصته ، مع إعادة لنشر كتابه السابق ..

وعرف العالم كله قصة تلك العملية ، التى كانت السبب فى تغيير كل نظم المخابرات العالمية ..

العملية السويسرية ؟

مذكرات رجل مخابرات

5

العملية الأولى

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًّا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورّ حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٥ ـ العملية الأولى ..

فجأة ، وصلنى استدعاء عاجل من الصارم ..

كنت أؤدى أعمالى اليومية المعتادة ، وأراجع بعض الملفات ؛ لاكتساب بعض الخبرات النظرية ، من أعمال القدامى ، عندما دلف وجه القنفذ إلى مكتبى فجأة ، وأشار بإبهامه خلف ظهره ، قائلاً فى اهتمام بالغ ، لم يتعارض قط ، مع رصانته المعتادة :

ـ سيادته يطلب رؤيتك فورًا .

اعتدلت ، مردِّدًا فى حذر :

ـ سيادته ؟!

نطق اسم الصارم ، على نحو يوحى بالاحترام والتقدير الشديدين ، قبل أن يضيف ، وهو يومئ برأسه ، على نحو لم أفهمه لحظتها :

ـ إنه لا يحب الانتظار طويلاً .

لملمت أوراقى بسرعة ، وأغلقت مكتبى خلفى بإحكام ، كما تقتضى التعليمات الأمنية ، ثم اتجهت مباشرة إلى مكتب

الصارم ، فى المبنى المجاور ، وكل خلية فى مخى تدرس الموقف ، وتحاول إيجاد أجوبة شافية لهذا الاستدعاء العاجل المفاجئ .

ولكننى أعترف هنا ، على هذه الأوراق ، بأننى لم أتوصل إلى الجواب الحقيقى ، أو حتى أتخيَّله ..

أبدًا ..

بل إن كل توقعاتى قد خابت تمامًا مع لحظات اللقاء الأولى ..

كلها بلا استثناء ..

فأوَّل ما توقَّعته هو أن يستقبلنى الصارم بأسلوبه المعتاد ، الذى يتناسب مع اللقب الذى أطلقته عليه ، وأن يلقى ما لديه على مسامعى فى غلظة وآلية ، و ...

ولكن الصارم لم يفعل هذا قط ..

لقد استقبلنى فى مكتبه بهدوء شديد ، ودعانى إلى الجلوس ، على المقعد المجاور لمكتبه ، ثم التقط ملفًا من أمامه ، ونقله أمامى ، وهو يقول ، فى لهجة بدت لى ودودة ، إلى حد كبير :

ـ طالع الصفحة الأولى من هذا الملف يا رجل ، وأخبرنى برأيك فيما تحويه .

كنت أعلم ، من واقع خبرتى النظرية ، أن الصفحة الأولى تحوى فى المعتاد ملخصًا سريعًا وافيًا لمحتويات الملف كله ؛ لذا فقد طالعتها فى دقة واهتمام ، قبل أن أقول ، فى حذر لم يمكننى تجاوزه :

ـ إننا نتحدَّث عن جاسوس ، يعمل لحساب دولة معادية ، فى موقع حساس من حكومتنا ، ولقد تم كشف أمره بسبب بعض الأخطاء البسيطة التى وقع فيها ، دون أن يدرى ، والتى كشفتها عيوننا ، فتم وضعه تحت المراقبة ، استعدادًا لإلقاء القبض عليه .

تراجع الصارم فى مقعده وسألنى :

ـ هل تعرف هذا الاسم جيدًا ؟!

أومأت برأسى إيجابًا ، فسألنى :

ـ وهل كنت تتصوَّر أن يكون جاسوسًا وعميلاً لأعداء وطننا ؟!

تردَّدت لحظة ، قبل أن أقول فى حذر :

ـ ما ورد فى هذا الملف ، يشير إلى أن ...

قاطعنى ، وقد استعاد صرامته المعهودة :

ـ هل كنت تتصوَّر هذا ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن أجيب فى حزم :

ـ لولا ما ورد فى هذا الملف ، لما تخيلت هذا قط .

ضرب سطح مكتبه براحته ، وهو يقول فى حماسة مفاجئة :

ـ بالضبط .

ثم نهض من خلف مكتبه بحركة حادة مباغتة ، وبدأ يتحرك فى المكان ، متابعًا فى حزم :

ـ الرجل يحتلَ منصبًا مرموقًا وحساسًا كما ترى ، ومن الواضح أنه قد تمت تغطيته بمهارة شديدة ، ومن المحتمل أنه يعمل لحسابهم منذ سنوات ، حتى إنه لم يعد يتخذ أساليب الحيطة والحذر المعتادة ، والتى تضمن سلامته وأمنه ، وهذا أولّ خطأ يقع فيه الجاسوس الذى يظل فى موقعه طويلاً ، إذ تتزايد ثقته بنفسه ، ويبدأ فى إهمال أمنه الشخصى .

واستدار إلىّ ، وهو يرفع سبّابته أمام وجهه ، مستطردًا فى شىء من الحماسة :

ـ وهنا ينكشف جانب من رقعته .

أدركت على الفور أنه يعنى بقوله هذا رقعة الشطرنج الوهمية ، التى تدور فوقها حرب الجواسيس دومًا ، فغمغمت :

ـ هذا من حسن حظنا .

انعقد حاجبا الصارم ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، قائلاً بكل صرامته :

ـ لا شأن للحظ هنا .

ثم جذب مقعدًا ، وجلس أمامى مباشرة ، وهو يضيف بلهجة حازمة صارمة ، وأسلوب أشبه بالمعلم ، الذى يلقن تلميذه قواعد لعبة جديدة :

ـ كلنا نتفق على أن عملنا أشبه بصراع فوق رقعة شطرنج .. القطع عليها هى الجنود ، الحقيقية والمعنوية ، والقواعد تحكمنا ، وتحكم خصومنا أيضًا ، وما دام الأمر كذلك ، فلا مجال للحظ على الإطلاق ، تمامًا كلعبة الشطرنج الأصلية .. كل قطعة تربحها ، إما بمهارتك فى اللعبة ، أو بخطأ يرتكبه خصمك على الرقعة .. وفى عمليتنا هذه ، أخطأ الخصم ، عندما لم يواصل التأكيد على أهمية الالتزام بقواعد الحيطة والحذر ، بالنسبة لعميله ، وهذا ما منحنا فرصة كشف أمره .. هل فهمت .

غمغمت :

ـ بالتأكيد .

قال ، وهو ينهض فجأة :

ـ عظيم .

ثم عاد خلف مكتبه ، وهو يضيف بصرامته المعتادة :

ـ خذ هذا الملف إلى مكتبك إذن ، وادرسه بمنتهى الدقة والعناية ؛ فهذه قضيتك الأولى .

وثب قلبى داخل صدرى فى لهفة ، واتسعت عيناى على الرغم منى ، وأنا أهتف :

ـ قضيتى ؟! أنا ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

ـ بالطبع .. هل تصوَّرت أنك ستجلس هنا بدون عمل إلى الأبد ؟!

كانت كل ذرة فى كيانى تتفجَّر بالحماسة والسعادة ، حتى

إننى لم أستطع منع انفعالاتى من القفز إلى لسانى ، وأنا أحمل الملف ، وأنهض ، متهللاً فى لهفة :

ـ كلاً يا سيِّدى .. كلاً بالطبع .

كنت أندفع نحو باب المكتب ، وكلى لهفة على بدء العمل فورًا ، عندما استوقفنى الصارم ، قائلاً :

ـ تذكَّر جيِّدًا .. هنا لا أحد يعمل منفردًا .

قلت بمنتهى الحماسة :

ـ بالتأكيد يا سيِّدى .. لقد درست هذا من قبل .. درسته وحفظته جيِّدًا .

مال إلى الأمام ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اعمل على حسن نقله إلى واقع الحياة العملية إذن .

لم أنس عبارته الأخيرة هذه أبدًا ، وأنا أعود إلى مكتبى ، وأضع الملف أمامى ، محاولاً إقناع قلبى بالتوقف عن الخفقان فى قوة ، قبل أن تتمزَّق أضلاعى من عنف ضرباته ، ومنع

أنفاسى المتلاحقة ، من التواصل على هذا النحو ، حتى لا أفقد وعيى ، وأنا أتطلّع إلى الملف ، الذى بدا لى أشبه بشهادة ميلاد جديدة ، فى عالمى هذا .. عالم المخابرات ..

سبع دقائق كاملة ، قضيتها محدّقًا فى الملف ، قبل أن ألتقط سمّاعة الهاتف الداخلى ، وأتحدّث إلى وجه القنفذ ، قائلاً :

- أريدك فورًا .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى وجدته يقف أمامى ، بوجهه النحيل الرصين ، وهو يقول فى هدوء :

- أوامرك .

طلبت منه أن يغلق باب المكتب خلفه ، ودعوته إلى الجلوس ، وأنا أربّت على الملف ، قائلاً :

- إنها قضيتى الأولى .

ابتسم ابتسامة رصينة كعادته ، وهو يقول :

- مبارك .

قلت فى سرعة :

- أريد خبرتك .

قال فى حماسة رصينة :

- كلى رهن إشارتك .

لم أطلعه على محتويات الملف فى البداية ، وإنما رحت أسأله عن كيفية العمل ، وأسلوب تكوين الفريق ، ووسائل التعامل مع الموقف ، وهو يجيب كل أسئلتى فى اهتمام هادئ ، دون حماسة أو انفعال ..

وبعد ساعة كاملة ، كنت قد راجعت معه كل ما درسته فى صفوف مدرسة المخابرات من قبل ، بشأن إدارة عمليات كهذه ، وعاوننى مخلصًا فى اختيار فريق العمل ، المكوّن من ثلاثة من الشباب وفتاة واحدة ، بالإضافة إليه هو ، كمرجع للمعلومات ، ومنسق للعمل ..

وبعد أن تم تدوين كل هذا ، فى محرّر رسمى ، أطلعته على الملف ، باعتباره فردًا فى فريق العمل ..

وفى أثنـاء مطالعتـه للملف ، قمت بعمـل كل الاتصالات الداخلية اللازمة ، لاجتماع فريق العمل ، بعد ساعة واحدة ، ثم سألته فى اهتمام :

ـ ما رأيك ؟!

هزّ رأسه ، مجيبًا :

ـ أمر مؤسف .

ثم استدرك فى رصانة :

ـ ولكنه ليس مفاجئًا .

تراجعت فى مقعدى بكل دهشتى ، قائلاً :

ـ ليس مفاجئًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ لو أنك طالعت ما طالعته عن عالم الجاسوسية ، لأدركت أن كل شىء ممكن ومحتمل ، مهمـا بلغـت غرابته ، وتاريخ حـرب الجواسـيس يحـوى الكثـير والكثـير ، مـن الأمـور الغريبة ، والمدهشة ، والمفزعة أيضًا ، حتى إنك سـتصبح ، بعد فترة من الخبرة ، مؤهلاً لتقبّل أى شىء .

تنهّدت ، مغمغمًا :

ـ الرجل يحتل منصبًا مرموقًا بالفعل ، وكان هذا يكفيه .

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ لسنا نعلم بعد ، لماذا عمل لحسابهم .. أو اضطر للعمل لحسابهم .

قلت مستنكرًا :

ـ هل يمكن أن يخون وطنه ، على الرغم من إرادته ؟!

قال فى هدوء رصين :

ـ كل شىء ممكن .

لوّحت بيدى مستنكرًا ، وأنا أقول :

ـ إلا هذا .. ولو كان الأمر بيدى ، لاكتفيت بمـا يحويه هذا الملف ، وألقيت القبض عليه فورًا .

هزّ رأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ لا يمكنك أن تفعل هذا .

لوَّحت بالملف هذه المرة ، وأنا أقول :

ـ هل قرأت الملف جيِّدًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا قبل أن يعتدل فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ نعم .. ووفقًا لما جاء به ، فهذا الرجل ليس جاسوسًا لدولة معادية .. على الإطلاق .

وكانت هذه الكلمات مفاجئة بالنسبة لى حقًّا ..

مفاجئة ومدهشة ..

كثيرًا .

[تابع فى الكتب القادمة]

★ ★ ★

صفحات من تاريخ الجاسوسية

زهرة السم

زهرة السم ..

منذ اللحظة الأولى ، التى وطئت فيها قدما ذلك البحار الشاب ، أرضية المقهى الصغير الشهير ، فى ميناء (مارسيليا) الفرنسى ، أدرك الكل أنه هارب من شىء ما ..

كان زائغ العينين ، مرتجف الأطراف ، عصبى الملامح ، والعرق يغمر وجهه فى غزارة ، على الرغم من برودة الطقس فى الخارج ، وأصابعه الممسكة بقبعة البحارة بين يديه ، تتحرك طوال الوقت ، على نحو عجيب ، وهو يتجه نحو البار مباشرة ، ثم يتوقف أمامه بضع لحظات ؛ ليحصى النقود القليلة فى جيبه ، قبل أن يقول :

ـ زجاجة مياه غازية فحسب .

ابتسم بعض البحارة القريبين فى سخرية ، وقهقه آخر فى آخر المكان ، فى حين تطلع البعض الآخر إلى الشاب فى شىء من الإشفاق ، وعامل البار يقول له ، فى صرامة قاسية :

ـ النقود أولاً .

كان العامل ـ بخبرته فى هذا المجال ـ يخشى أن يتناول الشاب زجاجته ، ثم يتضح بعدها أنه لا يملك ثمنها ، إلا أن الشاب ألقى إليه بالنقود فى عصبية ، ثم راح يحصى ما تبقَّى لديه ، وهو يلتقط الزجاجة ، ويتجه بها إلى أبعد وأصغر منضدة فى المكان كله ، وعيناه الزائغتان ما زالتا تدوران فى المكان ، على نحو جعله أشبه بحيوان صغير مذعور ، لا يدرى أين يمكن أن يذهب ..

ولربع الساعة أو أقل ، لم يكن لرواد المقهى الصغير من حديث ، إلا عن ذلك الشاب ، الذى راح الكل يستنتج جنسيته ومشاكله ، ثم لم يلبث الجميع أن أهملوه وتناسوه ، وانشغلوا فى أعمالهم وأحاديثهم ..

فيما عداها هى ..

(روز) ، تلك المرأة الجميلة الفاتنة ، التى تعرفها (مارسيليا) كلها ، منذ بضع سنوات ، والتى اعتادت التردُّد على مقاهى البحارة ، المنتشرة فى الميناء وحوله ؛ لقضاء بعض الوقت ، ولالتقاط زبائنها من بين بحارة السفن الأجنبية ..

وبالذات القادمة من الدول العربية ..

وفى (مارسيليا) كلها ، كانت تتردّد رواية واحدة ، عن (روز) الحسناء ، التى تفتّح قلبها فى صباها ، على حب بحار عربى شاب ، خلب لبها ، وأسكر عواطفها ، وأسمعها أجمل عبارات الحب والعشـق ، ومنحهـا أروع أيامـه ولياليه ..

ووفقًا للرواية ، اختفى البحار العربى ذات يوم ، وجن جنون (روز) ، وهى تبحث عنه فى كل مكان ، قبل أن تكشف الشرطة جثته ، فى مخزن مهجور ..

فمع جمال (روز) وفتنتها ، اندفع بحار آخر مخمور ، إلى قتل حبيبها العربى ، مدفوعًا بالحب والغيرة وغياب العقل ..

وانهارت (روز) ، وهامت على وجهها فى شوارع مدينتها ، قبل أن تتخذ قرارها بالسفر إلى (مارسيليا) ، بحثًا عن بحار عربى آخر ، يمكن أن يعوّضها عن حبيبها السابق ..

ومنذ استقرّت (روز) مع قصتها ، فى قلب (مارسيليا) ، وهى ترتاد كل المقاهى الخاصة بالبحارة ، وتعقد الصداقات مع كل من هو من أصل عربى منهم ، حتى لقد أطلق عليها البحارة العرب هناك اسم (زهرة مارسيليا) ..

وفى تلك الليلة ، التى وصل فيها ذلك البحار الشاب إلى المقهى ، كانت (روز) تراقص بحارًا ألمانيًا ضخم الجثة ، فى ضجر واضح ، حتى جذب الشاب انتباهها واهتمامها ، وخاصة مع اسم سفينته التجارية ، التى رست عند الميناء ، صباح اليوم فحسب ، والمكتوب فى وضوح ، على القبعة التى وضعها أمامه ، على المنضدة الصغيرة ، وهو يرتوى بزجاجة المياه الغازية فى نهم ، وعيناه معلقتان بقطعة لحم كبيرة ، راح بحاران إيطاليان يلتهمانها فى شراهة ، على المنضدة المجاورة ..

وبخبرتها وذكائها ، أدركت (روز) أن البحار الشاب مصرى الجنسية ، وأنه يعانى صعوبة اتخاذ قرار ما ، فى تلك الفترة من أوائل سبعينات القرن العشرين ..

وببضع كلمات هامسة ، ودعابة ماجنة ، تخلّصت (روز) من الألمانى الضخم ، واتجهت مباشرة نحو مائدة البحار الشاب ، وجلست أمامه دون استئذان ، وهى تسأله ، فى صوت حمل طنًا من الشفقة والحنان :

ـ أجائع أنت ؟!

ارتبك البحار الشاب بشدة ، ولوّح بكفه فى ذعر ، هاتفًا :

ـ كلاً .. لست جائعًا .

ابتسمت (روز) ابتسامة حانية، قبل أن تستدعى النادل، وتطلب منه وجبة دسمة ساخنة، جعلت الشاب يرتبك أكثر، وهو يقول:

ـ لا .. لست أر ...

قاطعته بابتسامة كبيرة، وهى تربّت على يده:

ـ اطمئن .. أنا سأدفع الحساب.

وجاء الطعام، وتردَّد الشاب بضع لحظات، ثم لم يلبث أن أقبل عليه فى لهفة، جعلتها تبتسم فى ثقة؛ لبراعتها فى اختيار أهدافها، وهى تراقبه فى صمت، حتى انتهى من طعامه، ثم غمغم فى خجل وارتباك:

ـ شكرًا .. كنت أحتاج إلى هذا بالفعل.

منحته ابتسامة ساحرة، وهى تسأله:

ـ أنت مصرى .. أليس كذلك ؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال فى استسلام:

ـ بلى .. سفينتى رست هذا الصباح، وستعود إلى الوطن، صباح الثلاثاء القادم .. أى بعد خمسة أيام فحسب.

ثم تردَّد لحظة، قبل أن يضيف فى خفوت:

ـ ولكننى لن أعود معها.

بدا من الواضح أن عبارته الأخيرة قد جذبتها بشدة؛ فقد اعتدلت فى مجلسها، وتألَّق بريق ما فى عينيها، وهى تسأله فى حذر:

ـ ولماذا ؟!

راح يروى لها معاناته فى (مصر)، وعجزه عن توفير حياة كريمة لنفسه، ومزج هذا بحديث ساخط عن غياب الديموقراطية، وحالة اللاسلم واللاحرب، وارتفاع أسعار المواد الغذائية الرئيسية ..

واستغرق حديثهما هذا المساء كله، حتى دقت الساعة، معلنة تمام الثانية صباحًا، فابتسمت (روز)، واحدة من ابتساماتها الساحرة، وهى تقول:

ـ هل يمكننى أن أدعوك إلى المبيت أيضًا ؟!

ومرة أخرى، تردَّد الشاب طويلاً، ثم بدا وكأنه مغلوب على أمره، وهو يتبعها فى صمت إلى منزلها الصغير الأنيق، دون أن ينبس ببنت شفة، ولكنه ما إن أصبح داخل المنزل، حتى ألقى نفسه على أقرب أريكة إليه، وغرق فى سبات عميق ..

أما (روز)، أو (زهرة مارسيليا)، فقد وقفت تتطلَّع

إليه بضع لحظات ، قبل أن ترفع أحد حاجبيها وتخفضه ، مغمغمة :

ـ ممتاز .

وفى هدوء ، دلفت إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى إحكام ، ثم انحنت تلتقط جهاز اتصال لاسلكى ، مخفيًّا بمهارة فى تجويف خاص ، فى قاعدة فراشها ، وراحت تبث رسالة شفرية خاصة ، إلى سفينة صغيرة ، من السفن الدائمة فى الميناء ، والتى تقتصر مهمتها على استقبال مثل تلك الرسائل ، وإعادة بثها ، على نحو أكثر قوة ، وبوسائل أكثر تطورًا ، إلى قلب الدولة غير العربية الوحيدة ، فى الشرق الأوسط كله ..

إلى (تل أبيب) ..

وبعدها ، نامت (روز) ملء جفنيها ..

وفى الصباح التالى ، وقبل أن تغادر حجرتها ، كان جهازها اللاسلكى يستقبل أوامر عاجلة وصارمة من (الموساد) الإسرائيلى ، الذى تعمل لحسابه ..

لا بد من تطبيق الإجراءات المعتادة ، على هذا الصيد الجديد .. فورًا ..

ولقد نفذت (روز) الأوامر بمنتهى الدقة ، كما اعتادت أن تفعل فى كل مرة ..

فالحقيقة أن (روز) هذا لم يكن أبدًا اسمها الحقيقى ..

إنها (جولى جولدشتاين) ، يهودية من أصل فرنسى ، تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، منذ أكثر من ستة أعوام ..

أما قصة (روز) وحبيب صباها العربى ، فما هى إلا خدعة كبيرة ؛ لتبرير سعيها لعقد الصداقات والعلاقات ، مع بحارة السفن العربية ، وانتقاء النوعيات الصالحة منهم للتجنيد ، والعمل لحساب (الموساد) الإسرائيلى ..

ولقد حققت (روز) نجاحًا ملحوظًا ، جعل المخابرات الإسرائيلية تعتبرها واحدة من أمهر وأبرع جواسيسها فى (أوروبا) كلها ..

ولعل براعتها تعود إلى جمالها الفاتن ، وقدرتها المدهشة على اصطناع الحنان ، ومنح الحب للجميع ..

وبخاصة البحارة العرب ..

وفى ذلك الصباح ، أعدّت (روز) لضحيتها الشاب وجبة إفطار شهية ، قبل أن تسأله فى اهتمام :

ـ أما زلت مصرًّا على عدم العودة إلى (مصر) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى أسى :

ـ أى عمل هنا ، سيكون أفضل من العودة إلى (مصر) .

مالت نحوه ، هامسة :

ـ وماذا لو كانت العودة أفضل من البقاء هنا ؟!

بدا مبهورًا ، مع رائحـة أنفاسـها العطرة ، وهو يلهث ، متسائلاً :

ـ وكيف هذا ؟!

تراجعت بابتسامة كبيرة ، قائلة :

ـ عندى وسيلة مضمونة .

نطقتها ، ثم غمزت بعينيها ، قبل أن تطلق ضحكة عابثة طويلة ، ظلّت تتردّد فى أذنـى وقلب البحار الشـاب ، حتـى قدّمتـه (روز) لصديقهـا (فرانسـوا) ، الـذى بـدا شـديد الوسـامة والأناقة والود ، وهـو يصـافح البحـار الشـاب ، ويسأله عن استعداده للعمل داخـل (مصـر) ، براتـب جيّد ، ومكافآت سخيّة ، مع كل عمل جيّد يقوم به ..

وعنـدما سأله الشاب عن نوع العمل ، الذى يستحق كل هذا ، ابتسم (فرانسوا) ، مجيبًا فى خبث :

ـ هذا يتوقّف على مدى مهارتك .

ثم مال نحوه ، وربّت على ركبته ، مضيفًا :

ـ أكثر ما يهمنا هو أن تتميّز بالكتمان ، وألا يعرف مخلوق واحد ما تفعله من أجلنا .

هتف الشاب بكل حماسة :

ـ بالتأكيد يا مسيو (فرانسوا) .. بكل تأكيد .

وعلى عكـس خططـه السـابقة ، عـاد البحـار الشـاب إلـى (مصـر) ، وفـى جيبـه ثلاثمائـة دولار ، مـع مطلـب واحـد للوسيم (فرانسوا) ..

الحصول على أسعار الخضر والفاكهة فى (مصر) ..

وبعد شهر واحد ، عاد الشاب إلى (مارسيليا) ، واستقبل (روز) كما استقبلته ، بمنتهى الحرارة واللهفـة ، وأخبرهـا أنـه قد أحضر ما طلبه صديقها الوسيم ، وأضاف إليـه أيضًا أسـعار اللحـوم ، والدجـاج ، ومعلومـة عـن أزمـة البيـض والعلب المحفوظة ..

ولقد ابتسم (فرانسوا) ابتسامة كبيرة ، وهو يستمع إلـى هذه المعلومات ، قبل أن يمنحه ثلاثمائة دولار أخرى كراتب شهرى ، ومثلها كمكافأة لما أحضره من معلومات ..

ولم يخف الشاب فرحته بالنقود ، ولا دهشته لعدم تناسبها مع المعلومات البسيطة التى أحضرها ، ولكن (فرانســوا) ربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ ربما تكون المعلومات المطلوبة أكثر أهمية ، فى المرة القادمة .

وكان هذا صحيحًا ، ففى المرة التاليـة ، كـان المطلوب منـه معرفـة عدد السفن التجاريـة والحربيـة ، فـى مينـاء (الإسكندرية) ، وجنسياتها ..

ولقد عاد الشاب بالمعلومة ، وأبدى سعادة أكبر بالمكافـأة الجديدة ، التى أنفق نصفها على محبوبتـه الفاتنـة (روز) ، قبل أن يعود إلى (القاهرة) ، مع أوامر بالسعى لمعرفة عدد مدافع الميدان ، حول الميناء التجارى فى (الإسكندرية) ..

وعاد البحار الشاب بالمعلومات الجديدة ، واستقبلته (روز) فى أجمل وأحلى ثيابها ، ومنحته أعذب ابتسـاماتها ، إلا أنـه بدا صارمًا حادًا ، وهو يقول :

ـ المعلومات التى يطلبها (فرانسوا) أصبحت مرهقـة ، وأنا أضطر لإنفاق الكثير ، من أجل الحصول عليها .

تطلَّعت إليه بابتسامة خبيثة ، قبل أن تقول :

ـ هل تريد زيادة المكافأة ؟!

هتف فى حدة :

ـ أظن أن هذا حقى .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تهمـس فـى أذنـه ، وعطرها الفوَّاح يلهب مشاعره :

ـ إنه حقـك ، ولكنـك تعرف اليهـود .. لـن يمنحـوك هذه الزيادة بسهولة .

كانت أوَّل مرة تصارحه فيها بحقيقة من يعمل لحسابهم ، لذا فقد حدَّق فيها بضع لحظات مبهوتًا ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ يهود أو حتى بوذيون .. المهم أن يدفعوا جيِّدًا .

ولقد راق هذا كثيرًا للوسيم ، الذى أعلن فـى وضـوح أن اسمه الحقيقى هــو (إفرايـم) ، وأن رؤسـاءه مسـتعدون لمضاعفـة المكافأة ، لـو أنـه أحضـر المزيـد من المعلومـات العسكرية والبحرية ، والتجارية أيضًا ..

وبعد مساومة طويلة ، وافق الشاب على القيام بالمهمة الجديدة ..

وفـى الزيـارة التاليـة ، أحضـر كومــة لا بـأس بهــا مــن المعلومـات ، عن القطع التابعة للسـلاح البحـرى المصـرى ، التى تحمى ميناء (الإسكندرية) ..

وكانت المكافأة سخية بحق ، حتى إن الشاب دعا (إفرايم) و(روز) إلى العشاء ، فى أحد أكبر مطاعم (مرسيليا) ..

وفى أثناء العشاء ، فجَّر الشاب مفاجأة مذهلة ، وهو يقول :

ـ الفرنسيون أحضروا بعض الصناديق العسكرية إلى سفينتنا سرًّا ، مساء أمس .

جنَّ جنون (إفرايم) ، وراح يبذل جهـدًا خارقًا ، لمعرفة ما تحويه تلك الصناديق العسكرية ، إلا أن الشاب أكَّد أنه لا يفقه شيئًا عن الرسوم التى عليهـا ، وأنـه لا يجيد الرسم لينقلها إليهما ، و.. ، و...

ولأن الأمر بـالغ الأهميـة والخطورة ، تشبث (إفرايم) بذراع الشاب ، وهو يقول فى حدة :

ـ اسـمع .. لابد أن أرى تلك الصنـاديق ، قبل أن تقلع سفينتك ، وبأى ثمن .. هل تفهم ؟! بأى ثمن .

نفض الشاب يده ، وهو يقول فى حدة :

ـ مستحيل ! لن يسمحوا بصعود غريب إلى سطح السفينة أبدًا .. مستحيل !

بدا (إفرايم) شديد العصبية ، وهو يتحدَّث مع (روز)

بالعبرية ، والشاب يتطلَّع إليهما فى بلاهة ، شأن من لا يفقه حرفًا واحدًا مما يقولانه ، قبل أن تومئ (روز) برأسها ، ثم تلتفت إلى الشاب ، قائلة فى هدوء :

ـ ألـم تـدعنى يومًا للقـائك فى قمـرتك ، على سـطح السفينة ؟!

لوَّح الشاب بيده ، قائلاً :

ـ هذا الأمر يختلف .. إنهم يعتبرونها نزوة عاطفية ، و...

قاطعته بابتسامة كبيرة :

ـ فليكن .. سألقاك الليلة ، على سطح سفينتك .

هتف بمنتهى اللهفة :

ـ حقًّا ؟!

واتسعت ابتسامة (إفرايم) فى ارتياح ..

ومع دقات الساعة ، معلنـة منتصف الليل ، وقف (إفرايم) يفرك كفيه فى توتـر ، وهـو يراقب (روز) ، التـى صعدت إلى سطح السفينة ، واستقبلها البحـار الشاب بابتسامة أخيرة ، وهو يقول :

ـ أخيرًا يا زهرة (مارسيليا) .

ابتسمت فى ثقة ، قائلة :

ـ أخيرًا يا حبيب القلب .

أمسك يدها فى قوة أدهشتها ، وهو يقودهـا إلـى قمرات البحارة ، فسألته فى لهفة ، لم تستطع إخفاءها :

ـ أين الصناديق الفرنسية العسكرية ؟!

ابتسم فى خبث ، قائلاً :

ـ أية صناديق ؟!

خُيِّل إليها أنها تراه لأوَّل مرة ، بقامته الطويلة ، وصـدره العريض ، وهو يتطلَّع إليها فى ظفر عجيب ، جعلهـا تقـول فى حدة :

ـ من أنت بالضبط ؟!

أغلق البـاب العازل للصوت ، وهـو يقـول بلهجـة قويـة حازمة ، لم تعتدها منه قط :

ـ من تتوقعين أن أكون ؟!

نطقهـا بالعبرية ، وبطـلاقة مدهشـة ، جعلت جسدها كلـه ينتفض فى عنـف ، وهى تحدِّق فيه بكل ذعر الدنيا ، فأمسك

ذراعيها فى قوة ، وتطلَّع إلى عينيها مباشرة ، بنظرة جمَّدت الدم فى عروقها ، وهو يتابع :

ـ صديقك (إفرايم) ، الذى يراقب المكان فـى الخـارج ، سيشاهد بعد قليل ، على الضوء الخـافت ، اثنين يشبهاننا ، يغادران السفينة ، ويستقلَّان سيارة ، ستقلهما إلـى خـارج الميناء ، ومن المؤكَّد أنه سيحاول تعقبهما ، ولكنه لن يعثر عليهما أبدًا .

حاولت تتخلَّص من قبضتيه القويتين عبثًا ، مع استطرادته :

ـ لقد أوقعت الكثيرين فـى فخك ، يا زهـرة (مارسيليا) المسمومة ، حتى وجدنا أنه لا بد مـن إزاحتك عن الطريق ؛ لإنقاذ شباب بحارتنا من مخالبك الوردية ..

ومال نحوها ، حتى خُيِّل إليهـا أنهـا ستذوب فـى عينيـه الصارمتين المسيطرتين ، وهو يقول :

ـ ستصحبيننا هذه المرة إلى (القاهرة) .

مع آخر حروف كلماته ، سمعت صفـارة السفينـة ، التـى تشير إلى إقلاعها ، فانتفض جسدها بكل رعب الدنيا ، وهـى تسأله مكرِّرة :

ـ من أنت ؟!

وفى هذه المرة ، أجابها فى صرامة :

ـ المخابرات العامة المصرية .

وانهارت (روز) تمامًا ..

وفى الوقت الذى كاد فيه (إفرايم) يجن ، وهو يقلب (مارسيليا) رأسًا على عقب ، بحثًا عن (روز) ، كانت السفينة ترسو بهذه الأخيرة ، فى ميناء (الإسكندرية) ، حيث تنتظرها واحدة من سيارات المخابرات المصرية ، أتت أخيرًا لتضع نهاية لهذه العملية ..

عملية زهرة (مارسيليا) ..

المسمومة ؟

★ ★ ★

حرب المعرفة

الحرب النفسية

(الحلقة الثانية)

٢ـ الدعـــايـة ..

المهتمون بالحرب النفسية فى العالم كله ، يعتنقون عددًا من السياسات ، الخاصة بوسائل غرس تأثيرات بعينها ، فى المجتمعات والشعوب ، أو فى الجيوش المقاتلة ، ويتأثرون دومًا بعدد من عباقرة الحروب النفسية ، وعمالقة لعبة الدعاية ، وعلى رأسهم جميعًا ، ودون أدنى استثناء ، الألمانى النازى (جوزيف جوبلز) ..

و(جوبلز) هذا أول وأخطر من استخدم فن الدعاية ـ كوسيلة للحرب النفسية ، وسبيل إلى غسيل المخ ، وإعادة توجيه الفكر ، إلى وجهة بعينها ، يتم اختيارها وتحديدها مسبقًا ، وذلك منذ عام ١٩٢٩م ، عندما بدأ نجم (أدولف هتلر) يلمع ، فى سماء السياسة الألمانية ، مع صعود الحزب النازى ، وسياساته الجديدة التى جعلها (جوبلز) تبدو أشبه بالأمل الوحيد فى الخروج من فخ الاقتصاد المنهار ، وروح الهزيمة المريرة ، التى امتلأت بها النفوس ، إثر هزيمة الحرب العالمية الأولى ، ومعاهدة (فرساى) المجحفة ، إلى جنة التطوّر ، والقوة ، والسيطرة ، وحلم (ألمانيا) ، زعيمة (أوروبا) والعالم أجمع ..

وبعبقرية (جوبلز) ، وأساليبه المتطوِّرة ، بزغ الحزب النازى ، وحصل على أكبر عدد من مقاعد (الرايشستاج) ، وأصبح (هتلر) رئيسًا للوزراء ، وعيَّن (جوبلز) وزيرًا للدعاية ، فأطلق هذا الأخير مهارته وعبقرياته أكثر وأكثر ، ليقفز (هتلر) إلى مقعد الرياسة ، ويبدأ فى تنفيذ حلم (ألمانيا) النازية الكبرى ..

وهنا ، أدرك الكل أهمية الدعاية ، وخطورتها ، وتأثيراتها الرهيبة فى الشعوب ، والأفكار والمعنويات ..

وبدأ الخبراء يدرسون فن الحرب النفسية ..

والدعاية ..

ويضعون الحقائق ..

والقواعد ..

والأساليب ..

والاتجاهات ..

والآن ، وبعدما يقرب من ستين عامًا ، على سقوط الرايخ الثالث ، وانهيار (ألمانيا) النازية ، وانتحار (هتلر) ، واندحار (جوبلز) ، أصبحت الحرب النفسية علمًا ضخمًا ، له كتب ، وقواعد ، ومراجع ، ويتم استخدامه فى كل الحروب ..

وكل أوقات السلم أيضًا ..

بل وفى كل ساعة ، ودقيقة وثانية ..وتقول هذه المراجع ، إن الدعاية تنقسم فى أساسها إلى قسمين كبيرين ، فهى إما دعاية استراتيجية ، أو دعاية تكتيكية ..

والدعاية الاستراتيجية ، من واقع تسميتها ، هى دعاية شاملة ، واسعة الانتشار ، بطيئة المفعول ، قوية التأثير ، لا تستهدف أشخاصًا بأعينهم ، بل تستهدف أنماطًا كاملة ، ولا تسعى خلف تغيير أفراد ، وإنما تحوير فكر أو اتجاه ، أو خلق نمط سلوكى أو اجتماعى جديد ، يناسب فى أسلوبه وتطوّره ، كل ما يحقق مصالح صاحب الدعاية ومستخدمها ..

وأكبر مثال لهذا النوع من الدعاية ، هو حالة العولمة ، التى تسعى إليها الولايات المتحدة الأمريكية ، وتسعى من خلالها إلى فرض النمط والنموذج الأمريكى على كل الشعوب الأخرى ، من خلال مغريات طويلة الأمد ، ومتغيرات بطيئة التأثير ، مثل تغيير النمط الغذائى ، من المأكولات الوطنية المعتادة ، إلى أنواع الوجبات الجافة السريعة ، وزرع النمط الاستهلاكى المتغيّر بسرعة ، بديلاً عن روح الإنتاج والصبر على النتائج المستقبلية وغيرها من وسائل التأثير التى

تنتشر وتتغلغل بين شباب أى مجتمع وتبدأ فى تغييرهم وتبديلهم رويدًا رويدًا ، دون أن يشعروا ، إلى أن يصبح ملبسهم ، وأسلوب تعاملهم ، وحتى تفكيرهم ، أمريكيًا تمامًا ، مما يمحو طابعهم الوطنى ، ويفسد انتماءهم ، وارتباطهم بأوطانهم ..

والدعاية الاستراتيجية قوية وفعّالة للغاية ، إذ إنها فى النهاية تخلق مواطنًا يميل إلى بلد آخر ، ولديه استعداد أكبر للخيانة والعمالة ، ويسهل اجتذابه وتحريكه ، ليتحوّل فى النهاية إلى قطعة من الشطرنج ، على لوحة مطلق الدعاية ..

وهنا تكمن خطورتها ..

وخطورة تأثيرها البطىء ..

العميق ..

والفعّال جدًّا ..

والدعاية الاستراتيجية تستخدم فى أوقات السلم ، أو فى الحروب المعنوية مثل الحرب الباردة الشهيرة الطويلة ، بين (أمريكا) والاتحاد السوفيتى ، بأكثر مما تستخدم فى أثناء

الحروب المباشرة ؛ نظرًا لأن تأثيراتها لا يمكن أن تظهر فى وقت قريب ، يتناسب مع فترات اشتعال وانتهاء الحروب ، فى العصر الحديث ..

وهنا يأتى دور الدعاية التكتيكية ..

والدعاية التكتيكية هى دعاية مباشرة ، قوية ، سريعة التأثير ، وسريعة النتائج أيضًا ، وهى تستهدف أمورًا بذاتها ، أو أشخاصًا بعينهم ، فتهاجمهم بعنف وضراوة ، وتنشر فضائحهم ، وتجسّم أخطاءهم ، وتلفق لهم الاتهامات ، وتوصمهم بالخيانة ، والعمالة ، وغيرها ..

وأقوى أنواع الدعايات التكتيكية ، هى ما بنى على لمحة من الواقع ، كأن يكون هناك حاكم ديكتاتورى النزعة بالفعل ، فتصنع منه الدعاية وحشًا كاسرًا ، وسفاحًا دمويًا ، وشيطانًا بلا أخلاق أو ضمير ..

وعندما تستند الدعاية التكتيكية على لمحة حقيقية ، يسهل تصديقها ، ويسهل انتشارها ، وتتحوّل إلى قوة هائلة ، قادرة على تحقيق الكثير ..

والكثير جدًا ..

أما لو بنيت الدعاية التكتيكية على غير أساس من

الصحة ، فهى تنهار فور انطلاقها ، بل وتتحوّل فورًا إلى دعاية مضادة ، بالغة القوة والتأثير ، لو أحسن الخصم استغلالها وتوجيهها ..

فالجيوش ، التى تتم تغذيتها على نحو منتظم ، وبوفرة واضحة فى الغذاء ، لا يمكن أن تنتشر بداخلها شائعة عن نقص الغذاء ، أو انعدامه ، أو حتى سوئه ، وإنما ستتحوّل الشائعة فورًا إلى مثار للسخرية ، ومدعاة للاقتناع بكذب الخصم ، وغفلته ، وسوء تقديره للأمور ..

الدعاية التكتيكية إذن تستخدم فى الحروب ، أو خلال الأزمات لتحقيق نتائج سريعة ، ومباشرة ، وقوية خلال فترة محدودة ..

هذا بالنسبة لتأثير الدعاية ..

أما بالنسبة لنوعيتها ، فهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية مهمة للغاية ..

الدعاية البيضاء ، والدعاية الرمادية ، والدعاية السوداء ..

والرابط اللونى هذا لا يرتبط بطبيعة المادة ، التى تقدّم من خلال الدعاية ، سواء كانت مظلمة أم مضيئة ، ولكنه يرتبط بالمصدر الذى يطلق الدعاية نفسها ..

فالدعاية البيضاء هى دعاية معروفة المصدر ، تطلقها دولة ، أو جهة معروفة ومعلنة ؛ للتأثير على شعب أو جيش دولة خِصْمة أو عدوة ..

والمثال الأكبر على هذا ، هو الإذاعات الموجَّهة ، التى تصدر عن دولة ما ، تعلن عن نفسها فى وضوح ، ولكنها تستخدم فيها لغة الدولة الخصم ، والأساليب التى تجذب شعبها ، وربما أغنياتها ومواضيعها المفضلة أيضًا ، بحيث تدس بين هذا وذاك بعض الأخبار التى ربما تكون صحيحة أو لا ، لتترك تأثير خاص فى الشعوب أو الجيوش ..

ولكى تنجح الدعاية البيضاء لابد أن تستند إلى شىء من الحقائق التى يدركها شعب أو جيش الخصم ، حتى لا يفقد الثقة بها ، خاصة وأنها تصدر من مصدر معروف بعدائه وخصومته ..

أما الدعاية الرمادية ، فهى دعاية غير واضحة المصدر ، تبدأ ، وتنتشر ، وربما تنتهى أيضًا ، دون أن يظهر بوضوح من الذى أطلقها بالضبط ، ومن المستفيد منها بالتحديد ..

والدعايات الرمادية تحتاج إلى أكبر قدر ممكن من الذكاء والحنكة ، نظرًا لأنها لابد ألا تحمل بصمة واضحة ومحدَّدة ؛ لذا فمستخدمها يكون فى المعتاد خبيرًا فى مجاله ، وأستاذًا فى فن التعامل مع الجماهير ، وتوجيه فكرها ، وتحوير اتجاهاتها ، دون إشارات واضحة ، أو توجهات مباشرة جلية ..

ومن الممكن أن تكون الدعايات الرمادية مقروءة ، أو مسموعة ، أو حتى مرئيَّة ، وفقًا لمقتضيات الموقف ، ونوع الوسائل المتاحة والمنتشرة ، فى منطقة الخصم ، والتى يمكن أن تكون ضعيفة ومحدودة ، أو شديدة التطوّر ، بحيث تغوص عبر شبكات الإنترنت ، ورسائل الهواتف المحمولة ، وغيرها ..

أما الدعاية السوداء ، فهى أخطر وأشرس أنواع الدعايات ، لو أحسن التعامل معها ، على الوجه الصحيح ..

والدعاية السوداء هى دعاية مباشرة ، ولكنها تصدر حتمًا عن مصدر ، يخالف المصدر المعلن ، كأن تنشئ (إسرائيل) مثلاً محطة إذاعية باللغة العربية ، يعمل فيها يهود من أصول عربية ، على نحو يوحى بأنها محطة للمعارضة فى الخارج ..

أو يمكن أن يكون هذا عبر مواقع الإنترنت ، التى تُطلق عبر الشبكة ، باعتبارها من مصدر قومى معارض مثلاً ، فى حين أنها فى واقعها تنطلق من موقع معاد تمامًا ..

وتأثير الدعاية السوداء هو أقوى تأثير معروف ، من بين كل أنواع الدعاية الأخرى ؛ لأنه يكسب ثقة المستمع ، أو المشاهد ، أو المتابع ، الذى يتعامل معها باعتبارها

مصادر صديقة ، تسعى إلى صالحة ومستقبله ، فى حين أنها فى واقعها مصادر عدوة تسعى لتدميره والقضاء عليه ..

والتاريخ يحمل لنا عشرات الأمثلة ، للدعايات الناجحة ، فى كل الحروب ، وكل المجالات ، والتى تبدأ من إطلاق الشائعات ، إلى إلقاء المنشورات ، التى تحوى إما الترهيب أو الترغيب ، إلى الإذاعات الموجَّهة ، والمستفزة ، والملتوية ، والمتخفية ، إلى أفلام السينما ، والأفلام التسجيلية ، والكتب والراويات ، وإلى ما تطوَّر إليه العلم الآن ، من رسائل هاتفية قصيرة ، ومواقع شبكة الإنترنت ، والرسائل البريدية الإلكترونية ..

ومن بين كل هذه الوسائل ، تعتبر الشائعات هى الأقوى ، والأكثر تأثيرًا و ....

وهذا ما سنتابعه ..

فى الكتاب القادم بإذن اللّه .

★ ★ ★

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسلة غير تقليدية ..

إنها أوّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدِّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أوّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء الله (العلى القدير)

د. نبيل فاروق

الجاسوس

(قصة واقعية من ملفات الجاسوسية العالمية)

١ ـ اتصـــال ..

● على الرغم من الجليد المنهمر على (موسكو) ، والذى لم يتوقف منذ أكثر من يومين ودرجات البرودة التـى تجاوزت العشرين تحت الصفر ، فى تلك الفترة من شتاء عام ١٩٧١م ، ومن خلو الطرقات تمامًا ، فى ظل الطقس الغاضب ، وفى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، راح (ميخائيل يوريف) ، السكرتير الأوّل فى إدارة المخابرات السوفيتية (KGB) يحث الخطى ، قاطعًا ذلك الطريق الطويل ، على مسافة ثلاثمائة متر فحسب من (الكريملين) ، مقر الحكم السوفيتى ، ولم يكد يبلغ منزله المكوَّن من ثلاثة طوابق ، حتى دلف إليه فى سرعةٍ ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، وراح يتلفت حوله فى حذر وتوتر ، قبل أن يندفع ليصعد في درجات السلم عدوًا ، ربما ليدفع فى أوصاله المتجمِّدة شيئًا من الدفء ، قبل أن يدخل شقته ، ويتوقَّف لحظة ؛ ليلصق أذنه ببابها ؛ للتيقُّن من أن أحدًا لم يتبعه ، حتى سمع صوت زوجته تهتف به :

ـ (ميخائيل) .. هل وصلت ؟!

انتفض جسده فى توتر غير عادى ، مع هتافها المفاجىء ، وسرت فى كيانه موجة غضب ، لم يكن لها ما يبررها ، وهو يهتف بها فى حدة :

ـ نعم .. وصلت .. عودى إلى النوم .. هيّا .

أدهشتها حدته أيضًا ، إلا أنها اكتفت بهزّ كتفيها ، وعادت تستغرق فى نوم عميق ، فى حين لهث هو على نحو غير طبيعى ، وهو يخلع معطفه وقفازيه ، وذلك الحذاء الثقيل ، المحشو بفراء سميك ، ثم أسرع إلى حجرة مكتبه ، وأغلقها خلفه فى إحكام شديد ، واتجه مباشرة نحو دولاب كبير ، ضغط جزءًا من قاعدته ، ثم أداره حول نفسه ، فبرز أمامه رف إضافى يحمل جهاز اتصال لاسلكى صغير ، التقطه (ميخائيل) فى حذر ، ووضعه أمامه على المكتب ، وأوصله بالتيار الكهربى ، ثم بدأ عملية الإرسال ..

رسالة قصيرة شفرية ، كانت تحمل معلومة خطيرة ..

خطيرة إلى أقصى حد ..

وبكل كيانه واهتمامه ، تركَّزت حواسه كلها على الرسالة ، و ...

وفجأة ، تحطَّم باب شقته بعنف ..

بمنتهى العنف ..

رصاصات مدفع آلى قوى ، انتزعت رتاج الباب الثقيل ، ونسفته نسفًا ، لتلقى به داخل الصالة بضجة هائلة رهيبة ..

وقفزت الزوجة من فراشها صارخة ..

وانتفضت كل ذرة فى جسد (ميخائيل)، وهو يطلق شهقة رعب هائلة، ثم يثب ليلتقط مسدسه من درج مكتبه، وهو يدير عينيه فيما حوله، صائحًا فى ارتياع :

ـ ماذا أفعل ؟! ماذا أفعل ؟!

تركزت عيناه على جهاز الاتصال اللاسلكى، المستقر فوق مكتبه، وأذناه ترتجفان لوقع الأقدام الثقيلة، التى تندفع نحو الحجرة، وصرخ عقله بأنه لم يكمل الرسالة بعد ..

لم يرسل أهم جزء منها ..

ولأنه يدرك أن ما حدث يعنى أن أمره قد انكشف، وأنه لم يعد أمامه أمل واحد فى النجاة، فقد وثب بكيانه كله نحو جهاز الاتصال اللاسلكى، محاولاً إكمال الرسالة ..

ولكن رصاصات أخرى نسفت باب حجرة مكتبه ..

وكومة من الرجال اندفعت داخل المكتب ..

وصوت ثقيل صارم قاس صرخ :

ـ (ميخائيل يوريف) .. إننا نلقى القبض عليك؛ بتهمة التجسس لحساب الكتلة الرأسمالية .

تراجع (ميخائيل) فى رعب، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فى فوهات المدافع الآلية المصوبة نحوه، والعيون الباردة القاسية المتطلعة إليه، وصرخات زوجته المتصلة تصم أذنيه ..

وبكل ذعر الدنيا، رفع (ميخائيل) يده نحو الرجال، صائحًا :

ـ إننى أستسلم .

نسى وهو يفعلها، أنه ما زال يحمل مسدسه فى يده ..

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه، فى حياته كلها ..

فمع رؤية المسدس يرتفع، وبدون تفكير، وكرد فعل تلقائى، من رجال تحفزت كل ذرة فى كيانهم، انضغطت أزندة المدافع الآلية ..

وانطلقت الرصاصات القاتلة، تحصد كل ما أمامها، دون أدنى شفقة أو رحمة أو هوادة ..

وصرخت الزوجة صرخة هائلة، قبل أن تهوى فاقدة الوعى، مع مرأى زوجها، والرصاصات تخترق كل جزء من جسده، وتقتلعه من مكانه فى عنف، لتدفعه ثلاثة أمتار

عبر الحجرة ، قبل أن يهوى أرضًا كالحجر ، وأجزاء جهاز الاتصال اللاسلكى ، الذى نسفته الرصاصات ، تتطاير من حوله فى كل اتجاه ..

وفى غضب ، مطَّ قائد مجموعة الرجال شفتيه ، دون أن يعترض بكلمة واحدة ، ثم اتجه فى خطوات لها وقع ثقيل مخيف ، نحو جثة (ميخائيل) ، وألقى عليها نظرة واحدة ، قبل أن يلتفت إلى أحد الرجال ، قائلاً فى صرامة قاسية :

ـ أخبر القيادة أن الهدف قد لقى مصرعه .

وبلا مبالاة ، ركل قطعة من الجهاز ، قبل أن يستدير مغادرًا المكان ..

جهاز الاتصال ..

★ ★ ★

اندفع (أندريه جيروم) ، رجل المخابرات الأمريكى ، عبر ممرات مبنى المخابرات الرئيسى فى (لانجلى) بولاية (فيرجينيا) ، وهو يحمل برقية عاجلة ، وصلت على التو من (برلين الغربية) ، واقتحم حجرة رئيسه (جورج برناب) ، وهو يلهث هاتفًا :

ـ السوفيت أرسلوا أخطر جواسيسهم إلى مؤتمر (جنيف) .

انعقد حاجبا (برناب) فى شدة ، وهو يهتف به :

ـ من أين أتيت بهذه المعلومة الخطيرة ؟!

لوَّح (جيروم) بالبرقية ، مجيبًا بنفس اللهاث الانفعالى :

ـ عميلنا فى قلب المخابرات السوفيتية أبرق بها إلى مكتبنا فى (برلين) .

ازداد انعقاد حاجبى (برناب) ، وهو يختطف البرقية من يده ، قائلاً :

ـ دعنى أرى .

التقط (جيروم) نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على لهاثه وانفعاله ، وهو يقول :

ـ أخطر ما فى الأمر أنهم يعرفون بأمر مؤتمر (جنيف) ، بيننا وبين رجال المخابرات الأوروبية ، بعد كل ما أحطناه به من السرية .

زمجر (برناب) فى عصبية ، مغمغمًا :

ـ أنت تعلم أنه من المستحيل تمامًا إخفاء أمر مؤتمر كهذا ، يضم ممثلى خمسة من أشهر أجهزة المخابرات ..

لوَّح (جيروم) بذراعه ، قائلاً :

ـ ولكن المؤتمر كله يدور حول كيفية مقاومة الشيوعية فى (أوروبا) ، ومجرَّد معرفة السوفيت به يعنى ..

قاطعه (برناب) بزمجرة أخرى وهو يقول فى خشونة :

ـ لقد عرفوا .. حاول أن تتعايش مع هذا .

زفر (جيروم) فى توتر ، ومطَّ شفتيه ، وهو يهزّ رأسه ، متمتمًا :

ـ للأسف .

ثم استعاد انفعاله بغتة ، وهو يتابع :

ـ ولكننا لا نستطيع السكوت على هذا .. لابد أن نفعل شيئًا .. أى شىء .. ماذا لو أجلنا انعقاد المؤتمر ؟!

هزَّ (برناب) رأسه فى حدة ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! الموعد تحدَّد فى الثامنة من مساء الغد .. أى بعد أربع وعشرين ساعة فحسب ، وكل الترتيبات تم اتخاذها ، وقرار بالتأجيل الآن ، سيثير موجة من التوتر ، يمكنك أن تضمن بعدها عدم انعقاد المؤتمر إلى الأبد .

بدت الحيرة على وجه (جيروم) ، وهو يقول :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

غمغم (برناب) فى توتر بالغ :

ـ لست أدرى !

قالها ، ثم عاد يلقى نظرة على البرقية الشفرية ، التى أرسلها (ميخائيل) إلى مكتب (برلين) قبل مصرعه ..

البرقية التى تنقصها كلمة واحدة ..

أخطر كلمة فى الموضوع كله ..

على الإطلاق .

★ ★ ★

٢ ـ المجهـول ..

● « السوفيت لديهم جاسوس خطير للغاية ، فى صفـوف أجهزة المخـابرات التى ستحضر مؤتمركـم الأمنـى السرى ، وهذا الجاسوس هو .. »

قرأ (برناب) البرقية المرسلة من (ميخائيل بوريف) ، إلى مكتب (برلين) ، التابع للمخابرات الأمريكية فى (أوروبا) ، أمـام مديره (روبرت مور) ، الذى انعقد حاجباه فى توتر ، وهو يستمع إليه ، حتى توقَّف (برناب) فجأة ، فهتف (مور) فى حدة :

ـ أكمل يا رجل .. من هو ذلك الجاسوس ؟!

ازدرد (برناب) لعابه فى صعوبة ، متمتمًا :

ـ هذا كل شىء .

مال (مور) برأسه إلى الأمام ، متسائلاً فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأن هذا كل شىء ؟!

هزَّ (برناب) كتفيه ، وقلب كفيه ، وهو يقول :

ـ هذا كل ما أرسله (بوريف) .. من الواضح أنهم قد باغتوه ، قبل أن يرسل الكلمة الأخيرة .

حدَّق فيه (مور) بضع لحظات ، وكأنـه لا يستوعب الأمر ، قبل أن ينعقد حاجباه مرة أخرى ، ويتراجع فـى مقعده ، قائلاً فى توتر :

ـ أتعنى أن عميلنا فى المخابرات السوفيتية قد سقط فى قبضتهم ؟!

أومأ (برناب) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ مصادرنا فى (موسكو) تؤكِّد أنـه قد لقى مصرعه ، قبل أن يتم بث الرسالة إلينا .

ازداد انعقاد حاجبى (مور) ، وهو يغمغم :

ـ إذن فقد كشفوا أمره .

ثم هتف بحدة مفاجئة :

ـ ماذا لو أنها خدعة إذن ؟!

التقط (برناب) نفسًا عميقًا ، وهزَّ رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يجيب :

ـ لقد درسنا هذا الاحتمال ، ثم وجدنـا أنـه لا مبرِّر على الإطلاق لأن يدَّعى السوفيت وجود جاسوس لهـم ، بين أعضاء الوفود الأوروبية ، المشاركة فى المؤتمر .

مال (مور) إلى الأمام، قائلاً:

ـ بل هناك مبرر قوى يا هذا .. وجود جاسوس سوفيتى مجهول، سوف يعنى إرباك الموقف كله، وفشل انعقاد المؤتمر، مع احتمال قوى، لعدم انعقاده فى المستقبل أبدًا.

اتسعت عينا (برناب) فى ارتياع، عندما بدا له الاحتمال منطقى للغاية، وتراجع بحركة حادة لحظة، قبل أن يستعيد تماسكه فى سرعة، قائلاً فى حزم:

ـ مصادرنا فى (موسكو) تؤكد عكس هذا.

ومال بدوره، ليستند على سطح مكتب (مور)، ويتطلع إلى عينى هذا الأخير مباشرة، وهو يكمل بحزم أكثر:

ـ هناك بالفعل جاسوس سوفيتى، فى مؤتمر (جنيف).

حدق (مور) فى وجهه وعينيه بضع لحظات، قبل أن يعود ليتراجع فى مقعده، ويقول فى توتر بالغ:

ـ ماذا سنفعل إذن ؟! تأجيل أو إلغاء المؤتمر أمر مستحيل، فى الوقت الحالى، و ...

قاطعه (برناب) فى حزم:

ـ مساعدى (أندريه جيروم) سافر بطائرة خاصة إلى

(جنيف)، وسيصلها فى الثانية عشرة من ظهر الغد، وهذا سيمنحه ثمان ساعات كاملة لكشف الجاسوس وتصفيته، قبل انعقاد المؤتمر.

مط (مور) شفتيه، ولوح بكفه، قائلاً:

ـ هراء ! ما دام السوفيت قد أوقعوا بعميلنا عندهم، فهذا يعنى أنهم قد اعترضوا بثه اللاسلكى، ويعرفون جيدًا أننا نعلم بوجود ذلك الجاسوس فى (جنيف)، مما يعنى بالتبعية أنهم سيتحركون أيضًا، وبسرعة أكبر منا؛ لأنهم يستطيعون بلوغ (جنيف) خلال ثلاث ساعات فحسب.

وافقه (برناب) بإشارة من رأسه، مجيبًا:

ـ لو أنهم اعترضوا البث اللاسلكى، فسيعلمون أنه لم يخبرنا باسم الجاسوس أو هويته، مما يعنى عدم التحرك بوضوح وعلانية .. أو حتى عدم ضرورة تحركهم على الإطلاق.

وعاد يميل على مكتب (مور)، متابعًا فى حزم:

ـ ثم إننى أرسلت بالفعل أحد رجالنا، من مكتب (برلين)، لمتابعة الموقف عن كثب، حتى يصل (جيروم).

بدت علامات تفكير عميق على وجه (مور)، ثم لم يلبث أن استحسن ما فعله (برناب) بدليل أنه قد سأله فى اهتمام:

ـ ومن أرسلت ؟!

التقط (برناب) نفسًا عميقًا ، وهو يجيب فى ثقة :

ـ (رودشتيرن) .. أمريكى الجنسية ، من أصل ألمانى ، ولقد وُلِد هنا فى (كاليفورنيا) ، ويعد أحد أفضل رجالنا فى (أوروبا) حاليًا .

أومأ (مور) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ أحسنت .

ثم استعاد صرامته وتوتره ، وهو يضيف :

ـ المهم أن يتم كل شىء فى سرية .. وفى الوقت المناسب .

ولم يُعلِّق (برناب) بحرف واحد ..

فقد كانت العبارة الأخيرة ، هى كل ما يبذل قصارى جهده من أجله ..

الوقت المناسب ..

★ ★ ★

رفع (جريجورى كورباتوف) ، رجل المخابرات السوفيتى يده بالتحية العسكرية ، أمام رئيسه الجنرال (كوبسكى) ، الذى سأله فى صرامة :

ـ هل نفذت ما أمرتك به ، بشأن عملية (جنيف) ؟!

أجابه (كورباتوف) ببروده المعتاد :

ـ كل شىء على ما يرام يا (جنرال) .. لقد تأكَّدنا من أن رسالة الخائن (ميخائيل يوريف) إلى الأمريكيين لم تكتمل .. إنهم لا يعرفون هوية أو جنسية الجاسوس .

غمغم الجنرال فى صرامة :

ـ هذا لا يكفى .

أجاب (كورباتوف) بنفس البرود :

ـ ليس أمامهم ما يفعلونه يا جنرال .. الوفود وصلت إلى (جنيف) بالفعل ، وكل الاستعدادات لإقامة ذلك المؤتمر السرى اكتملت ، والتراجع الآن مستحيل .. لابد من إقامة المؤتمر ، مهما كان الأمر .

قال الجنرال فى حدة :

ـ ليس فى وجود جاسوس بين الصفوف .

خُيِّل إليه أنه قد لمح شبح ابتسامة ، على شفتى لوح الثلج (كورباتوف) ، قبل أن يقول هذا الأخير فى اقتضاب :

ـ بالتأكيد .

انعقد حاجبا الجنرال فى شدة ، وهو يدرس ملامح (كوربانوف) ببصره ، محاولاً سبر أغواره ، إلا أنه ارتطم بملامح جامدة ، باردة ، قاسية ، جعلته يسأل فى غضب :

ـ هل تدير الأمر وحدك يا كولونيل ؟!

هزَّ (كوربانوف) رأسه نفيًا ، فى برود مستفز ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا يا جنرال .. كل ما فى الأمر أننى قد قمت بدراسة الموقف جيدًا ، وراجعت مع الخبراء كل التداعيات المحتملة ، ثم توصَّلت إلى فكرة خاصة ، رأيت أن أعرضها عليك .

حدَّق الجنرال (كوبسكى) فى وجهه ، بضع لحظات أخرى ، ثم لم يلبث أن تراجع فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ماذا لديك ؟!

أجابه (كوربانوف) فى سرعة ، وكأنه أعدَّ الجواب مسبقًا :

ـ صحيح أن إلغاء المؤتمر أو تأجيله غير واردين ، بعد إتمام كل التجهيزات ، ولكن الأمريكيين لن يجازفوا أيضًا بعقده ، فى وجود جاسوس بين الصفوف .

سأله الجنرال ، فى اهتمام شديد :

ـ وماذا تقترح ؟!

مال (كوربانوف) نحوه ، مجيبًا بنفس السرعة:

ـ أن يسقط جاسوسنا فى قبضتهم قبل المؤتمر .

وكان جوابه مفاجئًا بحق للجنرال ..

مفاجئًا ومدهشًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

٣ـ صراع الأقوياء ..

● انعقد حاجبا رجل المخابرات الأمريكى (مورجان جرينهد) ، رئيس الوفد الأمريكى ، فى مؤتمر الأمن السرى فى (جنيف) ، وهو يصافح (رودشتيرن) فى توتر ، قائلاً بمنتهى الحذر :

ـ القيادة أبلغتنى بسبب قدومك إلى (جنيف) يا سيِّد (شتيرن) ، ولكننى ما زلت أشعر بدهشة بالغة ، تقترب من حافة الذهول ، من احتمال وجود جاسوس سوفيتى ، بين وفود أجهزة المخابرات الأوروبية ؛ فحسبما أعلم ، لم يأت إلى هذا المؤتمر ، سوى من هو فوق مستوى الشبهات .

أومأ (شتيرن) برأسه فى هدوء ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .. ولكن رجال المخابرات السوفيتية أيضًا غاية فى الذكاء والبراعة ، ومن المحتمل أن جاسوسهم هذا مزروع فى مكانه منذ عدة سنوات ، ومحاط بسياج أمنى ، حتى لا يثير من حوله أدنى شك أو ريبة .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ بمعنى أصح .. هو جاسوس نائم .

ازداد انعقاد حاجبى (جرينهد) ، وهو يراجع فى جزء من الثانية ، كل معلوماته عما يعرف باسم الجاسوس النائم ..

ذلك النوع من الجواسيس ، الذى يتم زرعه فى وسط ما ، أو مجتمع ما ، دون تكليفه القيام بأى عمل ، مهما كانت الظروف ، مع تمهيد الطريق أمامه طوال الوقت ، وبكافة الطرق التى لا يمكن أن تثير أدنى شبهة ، حتى يبلغ مرتبة رفيعة ، أو منصبًا خاصًا ، ليتم إيقاظه عندئذ ، والإفادة بموقعه إلى أقصى حد ممكن ..

وفى توتر بالغ ، تساءل (جرينهد) :

ـ وكيف يمكن كشف شخص كهذا ؟!

تنهَّد (شتيرن) ، وهزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ سيكون هذا غاية فى الصعوبة .

تراجع (جرينهد) فى مقعده ، وهو يتطلَّع إليه فى حذر ، ولكن (شتيرن) اعتدل بحركة حادة ، وهو يقول فى حزم :

ـ ولكنه ليس مستحيلاً :

جف حلق (جرينهد) من فرط الانفعال ، وهو يهتف :

ـ حقًا ؟!

تابع (شتيرن) فى سرعة ، وكأنه لم يسمعه :

- أريد قائمة بأسماء كل رجال مخابرات (أوروبا) ، المشاركين فى المؤتمر ، مع كافة المعلومات المتوافرة عنهم ، سواء من أجهزتهم الأم ، أو من أرشيفنا الخاص .

صمت (جرينهد) بضع لحظات ، وهو يتطلّع إليه مباشرة ، قبل أن يسأله فى حذر :

- هل تعتقد أن هذا سيفلح ؟!

أجابه شتيرن فى حزم :

- هذا هو أملنا الوحيد .

صمت (جرينهد) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول فى حسم ، وهو يعتدل على مقعده :

- فليكن .. ستحصل على كل ما تريد ، خلال ساعة واحدة .

نطقها ، وعقله ما زال يتساءل : تُرى هل يمكن أن يساعد هذا ، فى كشف الجاسوس السوفيتى بين الصفوف ؟!

هل ؟!

* * *

فشل (أندريه جيروم) تمامًا فى النوم أو الاسترخاء ، داخل الطائرة النفاثة الخاصة التى تحمله من (واشنطن) إلى (جنيف) ؛ فقد كانت كل ذرة فى كيانه تشعر بالتوتر ، وعقله يراجع كل ما لديه من معلومات ، فى محاولة لتحديد هوية ذلك الجاسوس السوفيتى الغامض ..

لقد راجع كل المعلومات الخاصة برجال مخابرات (أوروبا) ، المسجلين بالمؤتمر .. راجعها مرة .. وثانية ، وثالثة .

ولم يتوصّل إلى أى شىء ..

أى شىء ..

وهذا يعنى أن ذلك الجاسوس محترف بحق ، ويسير وفق منهج مدهش ، وضعه السوفيت بذكاء وعبقرية ، منذ عدة سنوات ، بدليل أنه قد صار أهلاً لثقة رؤسائه ، فاختاروه لحضور مؤتمر سرى بهذه الخطورة ..

تُرى من يكون ؟!

ما هويته ؟! وما جنسيته ؟!

بريطانى ، أم فرنسى ، أم إيطالى ، أم ..

قبل أن يكمل تساؤلاته فى أعماقه ، اتجه نحوه مساعد الطيار ، وهو يمسك هاتفًا لاسلكيًا ، قائلاً :

ـ مكالمة عاجلة من (واشنطن) يا سيِّد (جيروم) .

اعتدل (جيروم) فى مقعده ، والتقط سمَّاعة الهاتف فى لهفة ، قائلاً :

ـ من المتحدِّث ؟!

أتاه صوت رئيسه (برناب) ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ (جيروم) .. هناك تطوّر خطير فى الأمر ..

تساءل (جيروم) فى توتر :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه بلهجة ، تشفّ عن أهمية وخطورة الأمر :

ـ السوفيت أرسلوا أحد ضباطهم إلى (جنيف) .

كاد (جيروم) يقفز من مقعده ، وهو يهتف :

ـ أحد ضباطهم ؟! أأنت واثق من هذا ؟!

أجاب (برناب) :

ـ كل الثقة .. مصدر مؤكَّد فى (موسكو) ، أبرق إلينا

الآن ، بأن (جريجورى كورباتوف) ، مسئول النشاط الغربى ، قد أرسل ضابطه الأوَّل ، الميجور (تيودور رومانسكى) إلى (جنيف) ، فى مهمة سرية وعاجلة .. لاحظ أن (كورباتوف) هذا هو الذى كشف أمر (ميخائيل) .

هتف (جيروم) بكل الانفعال ، الذى اختزنه فى أعماقه ، منذ بدأ رحلته :

ـ هل تعلم ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابه (برناب) فى سرعة :

ـ يعنى أننا نسير فى الطريق الصحيح .

هتف (جيروم) :

ـ بل يعنى ما هو أكثر أهمية .. إن سفر (رومانسكى) هذا إلى (جنيف) ، بتكليف من (كورباتوف) ، ليس له سوى معنى واحد .. أن (رومانسكى) سيلتقى هناك بذلك الجاسوس السوفيتى ، الذى نبحث عنه .

نقلت موجات اللاسلكى أنفاس (برناب) المبهورة ، وهو يهتف :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

صاح (جيروم) فى حماسة :

ـ فى ظروف كهذه ، لا يوجد تفسير آخر ..

ونهض من مقعده بالفعل ، وكأنما نسى أنه داخل طائرة نفاثة ، وراح يتحرك فى انفعال ، متابعًا :

ـ كل ما علينا هو أن نرصد (رومانسكى) ، فور وصوله إلى (جنيف) ، وأن نتعقَّبه ونراقبه كظله ، دون أن نسمح له بالاختفاء عن بصرنا ، أو الخروج من سيطرتنا لحظة واحدة ، وما أن يلتقى بذلك الجاسوس ، حتى نكشف أمره ، و ...

لم يكن بحاجة إلى إكمال عبارته ، ولكن (برناب) فهم ما يعنيه ، فهتف بكل حماسة الدنيا :

ـ عبقرى يا (جيروم) .. أنت عبقرى بحق .

وكان هذا يعنى أنه قد وافق على الفكرة تمامًا ..

وفى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها هتافه ، كان (شتيرن) قد انتهى من مراجعة ملفات كل رجال مخابرات (أوروبا) ، الذين يشاركون فى مؤتمر الأمن السرى ، وأغلق آخر ملف أمامه ، قائلاً لزميله (جرينهد) :

ـ بعد مراجعة دقيقة ، لا أجد أمامى سوى اثنين فحسب ،

يمكن الاشتباه فيهما .. الفرنسى (روجيه بلموندو) ، والبريطانى (جون أشكروفت) .

سأله (جينهد) بمنتهى الحذر :

ـ فقط ؟!

أجابه (شتيرن) بمنتهى الحزم :

ـ فقط .. وأراهن بخبرتى كلها على هذا .

لم يكد ينطقها ، حتى وثبت إلى ذهنه بغتة فكرة مزعجة ..

فكرة كفيلة بأن تقلب الأمر كله رأسًا على عقب ..

هذا لأنها فكرة مخيفة ..

للغاية .

* * *

٤ ـ من ؟!

● ماذا لو أن ذلك الجاسوس السوفيتى المجهول ، هو أحد أفراد الوفد الأمريكى فى المؤتمر ؟!

قفزت الفكرة المخيفة فجأة إلى رأس (شتيرن) ، فنقلها إلى لسانه على الفور ، وعلى نحو جعل (جرينهد) يهتف فى حدة مستنكرة :

ـ أحدنا ؟! مستحيل !

سأله (شتيرن) فى حزم :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لأننى انتقيت كل فرد هنا بنفسى ، وبعد مراجعة ملفه بمنتهى الدقة .

أشار (شتيرن) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ لاحظ أن الجاسوس النائم يمكن أن ...

قاطعه (جرينهد) فى حدة أكثر :

ـ قلت : مستحيل !

لثوان ، التقت عيونهما ، فى تحد سافر ، واعتدل (شتيرن) فى مقعده ، وعقد ساعديه أمام صدره فى تحفز ، يوحى بأنه يهم بالهجوم على (جرينهد) ، وقول شىء يؤذى مشاعره وثقته بفريقه ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتف حجرة (جرينهد) ..

وبحركة آلية سريعة ، التقط (جرينهد) سمَّاعة الهاتف ، ووضعها على أذنه ، وأرهف سمعه ، دون أن ينطق بحرف واحد ، ثم لم يلبث أن اعتدل فى مجلسه بحركة سريعة ، هاتفًا :

ـ نعم يا مستر (جيروم) .. إنه هنا .

ثم ناول سمَّاعة الهاتف إلى (شتيرن) ، قائلاً فى توتر :

ـ المحادثة لك .

انعقد حاجبا (شتيرن) ، وهو يلتقط السمَّاعة على حذر ، مغمغمًا :

ـ مرحبًا يا مستر (جيروم) .. لقد انتهيت على التو من ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، على نحو يوحى بأن (جيروم) قد استوقفه لأمر مهم ، وبدت عليه علامات الاهتمام البالغ ، وهو يستمع فى إنصات وصمت تامين ، قبل أن يغمغم :

ـ بالتأكيد يا مستر (جيروم) .. بالتأكيد .

كان (جرينهد) مستعدًا لدفع نصف عمره ، فى تلك اللحظة ؛ لمعرفة فحوى ذلك الحديث ، الذى نقلته شفتا (جيروم) إلى أذنى وعقل (شتيرن) ، ولكن هذا الأخير أنهى المحادثة ، ونهض دون أن ينبس ببنت شفة ، متجهًا إلى باب الحجرة ، فاستوقفه (جرينهد) ، وهو يسأله فى حذر :

ـ هل من جديد ؟!

التفت إليه (شتيرن) فى بطء ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

نطقها ، وغادر الحجرة بحركة سريعة ، وأغلق الباب فى هدوء ، تاركًا رجل المخابرات الأمريكى خلفه ، وعقله يلتهب بسؤال كاد يلتهم كل ذرة فى كيانه ..

تُرى ما الجديد ؟!

وماذا سيفعل (شتيرن) ، فى المرحلة القادمة ؟!

ماذا ؟!

★ ★ ★

عندما يقع بصرك على الميجور (تيودور رومانسكى) ، رجل المخابرات السوفيتى ، الذى وصل إلى (جنيف) ، فى الواحدة والنصف صباحًا ، سيكون من العسير عليك أن تتصورَّ أنه روسى الجنسية ؛ فهو طويل القامة ، عريض المنكبين ، قمحى البشرة ، أسود الشعر ، أجعده ، أنيق الملبس إلى حد لا يتفق أبدًا مع حالة التقشف الشيوعية ، التى يحيا فيها ـ رسميًّا ـ الاتحاد السوفيتى ..

ولولا أن (شتيرن) يحمل معه صورة واضحة له ، لما أمكنه معرفته ، وسط العشرات الذين حملهم قطار الليل ، إلى المدينة السويسرية الشهيرة ..

ولقد بدا (رومانسكى) هادئًا أكثر مما ينبغى ، وهو يغادر محطة القطار ، ويجلس فى انتظار آخر حافلة عامة ، فى قلب الليل ..

وفى حيرة ، تساءل (شتيرن) ، لماذا لم يجد (رومانسكى) ، على الرغم من أهمية مهمته وخطورتها ، سيارة ما فى انتظاره ، لتوفير الوقت على الأقل ؟! ثم بدا له أن الجواب منطقى للغاية ..

(رومانسكى) يتحاشى لفت الانتباه ، بأية وسيلة كانت ..

وكان هذا دأبه أيضًا ..

لا ينبغى أن يشعر السوفيتى بمراقبته له أبدًا ، مهما كان الثمن ..

ووصلت الحافلة ، وركبها كلاهما ، وانطلقت بهما ، مع الدفعة الأخيرة من عمال الليل ، عبر شوارع (جنيف) ، حتى آخر محطاتها ..

وهناك فقط ، هبط (رومانسكى) ، وخلفه (شتيرن) ، الذى تنكر فى هيئة أحد العاملين فى المطاعم الساهرة ، تبريرًا لوجوده فى مثل هذه الساعة المتأخرة ..

وفى هدوء شديد ، قطع (رومانسكى) مسافة أخرى على قدميه ، دون أن يلتفت خلفه لحظة واحدة ، و(شتيرن) يتبعه فى براعة منقطعة النظير ، تؤكد أنه قد تلقى تدريبات دقيقة وطويلة فى علم التعقب ، كما أن لديه خبرة كافية ، تتيح له تعقب خصمه ، دون أن ينكشف أمره لحظة واحدة ..

ولكن (رومانسكى) سار طويلاً فى شوارع المدينة ..

سار فى هدوء مستفز ، وراح ينتقل من شارع إلى شارع ، ومن حى إلى حى ، على نحو يؤكد أنه يحاول التأكد من أن أحدًا لا يتبعه ، قبل أن يتجه إلى المنزل الآمن ، الذى سيتحول ، فور وصوله إليه ، إلى مركز لقيادة عملية الاتصال بالجاسوس السوفيتى وتحذيره ..

وأخيرًا ، وفى الثالثة والربع صباحًا ، وصل (رومانسكى) أخيرًا إلى فندق صغير ، ودلف إليه ، وبدأ إجراءات الإقامة فى إحدى حجراته ..

كانت الحجرة رقم ٣١٤ ، فى الطابق الثالث ، ولقد دفع أجر الإقامة مقدمًا ؛ نظرًا لأنه لم يكن يحمل سوى حقيبة شخصية واحدة ..

وانتظر (شتيرن) ، حتى صعد (رومانسكى) بالفعل إلى حجرته ، ثم أسرع هو يجرى اتصالاته ؛ لتأمين عملية المراقبة ، حتى صباح اليوم التالى ..

والعجيب أنه لم يكد يطلب رقم حجرة (جرينهد) ، وقبل حتى أن يسمع الرنين عند الطرف الآخر ، التقط هذا الأخير سماعة الهاتف ، قائلاً فى توتر :

ـ أين كنت ؟! إننى أنتظر اتصالك ، منذ أكثر من ساعتين .

ارتفع حاجبا (شتيرن) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ وهل كنت تتوقع أن أتصل بك ؟!

صمت (جرينهد) لحظة ، ثم قال فى صرامة :

ـ بالطبع .. هل نسيت أننى أيضًا رجل مخابرات ؟!

غمغم (شتيرن) فى بطء :

ـ كلاً .. لم أنس .

سأله (جرينهد) فى لهفة :

ـ ماذا لديك ؟!

هزّ (شتيرن) رأسه ، قائلاً فى قلق :

ـ لست أدرى .. لقد وصل فى الموعد ، الذى أبلغنا به مصدرنا فى (موسكو) ، وقضى شطر من الليل يجولّ بلا هدف فى المدينة ، قبل أن يستقر فى فندق صغير ، ولكن ..

صمت فجأة ، وكأنه يعيد دراسة الموقف كله ، فسأله (جرينهد) ، فى لهفة أكثر :

ـ ولكن ماذا ؟!

تنهّد (شتيرن) فى عمق قبل أن يجيب :

ـ هناك شىء ما ، لا يمكننى فهمه أو استيعابه .. شىء لا يمكن تحديده بالضبط ، ولكنها تلك الحاسة ، التى نكتسبها مع عملنا فى هذا العالم ..

سأله (جرينهد) فى حذر :

ـ شىء مثل ماذا ؟! أفصح .

تردّد (شتيرن) بضع لحظات ، وكأنه عاجز عن تفسير ما لديه ، ثم اندفع فجأة ، قائلاً :

ـ كل شىء يوحى بأنه ليس على عجلة من أمره .. صحيح أننا تعلمنا كيف نخفى مشاعرنا ، وكيف نخفى أحاسيسنا فى أعماقنا ، ولكن (رومانسكى) هذا يبدو لامباليًا ، وكأنه ليس هنا من أجل مهمة خطيرة وعاجلة ، وإنما ..

بتر عبارته بغتة بشهقة مكتومة ، جعلت (جرينهد) يهتف فى لهفة :

ـ ماذا حدثِ يا (شتيرن) ؟! ماذا حدث عندك ؟!

ولكن (شتيرن) لم يجب ؛ فقد كان بصره ، مع انتباهه كله ، قد تركّز على ركن شبه مظلم ، من الشارع الجانبى الضيق ، المجاور للفندق الصغير ..

فما رآه هناك كان مدهشًا ..

بحق .

* * *

٥ ـ السوفيتى ..

● هب الكولونيل (كوريـاتوف) واقفًا ، وهـو يـؤدى التحية العسكرية فى احترام ، لرئيسه الجنرال (كوبسكى) ، فور دخول هذا الأخير إلى مكتبه ، وهو يسأل فى اهتمام بالغ :

ـ هل من أخبار من (جنيف) ؟!

أومأ (كورباتوف) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ الميجور (رومانسكى) وصل فى موعده ، وكل شىء يسير وفقًا للخطة .

سأله الجنرال :

ـ هل علم الأمريكيون بوصوله ؟! وهل يتعقبونه ؟!

هزَّ (كورباتوف) كتفيه فى هدوء وبساطة ، قائلاً :

ـ لا ريب فى أنهم يفعلون .

حدَّق الجنرال فى وجهه ، بمزيج من الدهشة والاستنكار ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ أى جواب هذا ؟!

مرة أخرى ، لمح شبح ابتسامة باهتة ، تسلَّلت إلى ركن شفتى (كورباتوف) لجزء من الثانية ، قبل أن يقول فى هدوء بارد :

ـ كلنا نعلم أن الأمريكيين بارعون جدًا فى هذا المضمار يا جنرال ، ولو بذل (رومانسكى) جهده للتيقن من تعقبهم إياه ، فسيضيع وقته كله .. الأفضل أن يؤدِّى مهمته ، دون أن يضيع لحظة واحدة ، فى الالتفات خلفه .

انعقد حاجبا الجنرال فى غضب ، وهو يقول :

ـ لو أنك تعتبر هذا جوابًا ، فأنا لم أفهمه .

فى هذه المرة بدت ابتسامة (كورباتوف) أكثر وضوحًا ، وهو يقول بنفس البرود المستفز :

ـ المهم ألا يفهمه الأمريكيون أيضًا .

وازداد انعقاد حاجبى الجنرال (كوبسكى) فى شدة ..

فعبارة (كورباتوف) كانت غامضة بالفعل هذه المرة ..

غامضة للغاية ..

* * *

لثوان ، بدت أشبه بدهر كامل ، تجمّد (شتيرن) فى مكانه ، وهو يحدق فى ركن الشارع الضيق شبه المظلم ..

فهناك ، وعلى الضوء الخافت للغاية ، كان (رومانسكى) ينزلق ، فوق ماسورة مياه صغيرة ، ليهبط فى ركن الشارع الضيق ..

وبحركة سريعة ، أعاد (رومانسكى) سمّاعة الهاتف العمومى إلى موضعها ، ثم تراجع ملتصقًا بالجدار ، وكتم أنفاسه بحركة غريزية ، حتى لايلمحه رجل المخابرات السوفيتى ، الذى تلفت حوله فى حذر ، قبل أن ينطلق بخطوات سريعة عبر الطريق الرئيسى ، وقد استبدل ثيابه ، بثوب أشبه بالزى الرسمى لموزعى الألبان ، الذين يبدأون عملهم فى الصباح الباكر ، وهو يحمل صندوقًا من صناديق الألبان المبسترة السويسرية الشهيرة ..

وفى انبهار ، تمتم (شتيرن) :

ـ يا للبراعة والخبث !

ظلّ جامدًا فى موقعه ، حتى ابتعد السوفيتى بمسافة كافية ، ثم انطلق خلفه ، يتبعه عبر شوارع المدينة النائمة ..

ومما لا شك فيه أن كل من الرجلين قد استخدم أقصى مهاراته وخبراته ؛ لبلوغ هدفه ..

(شتيرن) راح يتعقّب (رومانسكى) فى الطرقات ، ومن فوق الأسطح ، وتحت الكبارى والجسور ، أما السوفيتى ، فقد راوغ وناور ، وبذل أقصى ما يمكن أن يبذله خبير ، للإفلات من أية مطاردة محتملة ..

ومع ساعات الفجر الأولى ، توقّف السوفيتى عند كابينة هاتف عمومية ، على مسافة مائة متر من الفندق ، الذى يقيم فيه الوفد الأمريكى المخابراتى غير الرسمى ، المشارك فى مؤتمر الأمن السرى ..

وأجرى محادثة هاتفية قصيرة ..

ومن مكمن خفى رآه (شتيرن) ينزوى فى ركن مستتر ، ثم ينزع عنه ثياب موزع اللبن ، ليبدو تحتها ثوب آخر ، تعرّفه (شتيرن) على الفور ..

وانعقد حاجباه فى شدة وتوتر بلا حدود ..

فقد كان زى العاملين فى الفندق ..

الفندق الذى يضمّ كل رجال المخابرات الأمريكيين ، المشاركين فى المؤتمر ..

وخفق قلب (شتيرن) فى قوة وعنف ..

إذن ، فقد كان على حق فى مخاوفه ..

الجاسوس السوفيتى ، الذى حذر منه (ميخائيل يوريف) ، هو أحد رجال المخابرات الأمريكيين ..

يا للعار !

وفى هدوء عجيب ، غادر (رومانسكى) مكانه ، مرتديًا زى عمال الفندق ، واتجه إلى بابه الخلفى ، المؤدى إلى منطقة المغسل والمطابخ ..

ولثوان ، ظلّ (شتيرن) فى مكانه ، قبل أن يتحرّك فى خفة ، متجهًا إلى المدخل الرئيسى للفندق ..

كان يريد أن يعرف أين (رومانسكى) الآن بالضبط ؟!

إلى أية حجرة صعد ؟!

وبمن سيلتقى ؟!

وعند الباب الرئيسى ، استوقفه حارس الفندق ، وهو يرمقه بنظرة شك ، وسأله عن هويته ، وعن سبب قدومه ، فى مثل هذه الساعة المبكرة ، و...

وفجأة ، انطلق جرس إنذار الحريق ، فى المكان كله ..

ولدهشة (شتيرن) ، وخلال لحظة واحدة ، سادت حالة من الهرج والمرج المكان كله ..

العشرات برزوا من كل مكان ، واندفعوا من كل صوب ، وقد تولاهم الرعب والفزع والهلع ، وانطلقوا يعدون نحو الأبواب ، حتى إن عمال الفندق أنفسهم ورجال أمنه ارتبكوا ، وفقدوا سيطرتهم على الموقف ، وارتفعت من بعيد أبواق سيارات الشرطة ، والإطفاء والإسعاف ، وكأن كل شىء معدّ ومعروف مسبقًا ..

وحاول (شتيرن) أن ينطلق عبر تيار البشر ، وأن يدخل إلى الفندق ، عكس موجات الفارين منه ..

حاول .. وحاول .. وحاول ..

ولكن هذا كان مستحيلاً تمامًا ، حتى بالنسبة لرجل مخابرات محنك مثله ..

وانعقد حاجبا (شتيرن) فى شدة ، عندما لمح وجوه أفراد المخابرات الأمريكية ، بين نزلاء الفندق ، الذين يتدافعون لمغادرته ، مع وصول رجال الإسعاف والشرطة والإطفاء إلى المكان ..

كانوا كلهم هناك ..

كلهم بين النزلاء .. بلا استثناء ..

وعندئذ .. عندئذ فقط ، أدرك (شتيرن) حقيقة الموقف ، فتوقف عن محاولة السباحة ضد التيار ، واندفع خارج المكان ، ثم انطلق إلى المدخل الخلفى ، بحثًا عن الميجور (رومانسكى) ..

ولكن رجل المخابرات السوفيتى كان قد نجح فى لعبته تمامًا ..

فعلى الرغم من كل الجهد ، الذى بذله (شتيرن) ، للبحث عنه ، كان (رومانسكى) قد اختفى وسط الهرج والمرج ..

اختفى تمامًا ..

* * *

احتقن وجه (جيروم) بشدة ، وهو يتلقَّى الخبر عبر هاتف اللاسلكى ، داخل الطائرة النفاثة ، فى تمام التاسعة ، وهتف بكل توتر الدنيا :

ـ إذن فقد خدعك السوفيتى يا (شتيرن) .. استدرجك حتى الفندق الذى يضمّ وفدنا السرى ؛ ليثبت لك إنه على علم بأمرنا ، ثم أطلق إنذار الحريق الآلى ، بوساطة بعض الدخان ، ليثير الهرج والمرج ، ويختفى دون أن تدرك وجهته ..

عضّ (شتيرن) شفته السفلى ، فى محاولة للسيطرة على انفعاله ، وهو يجيب :

ـ أعترف أنها خدعة ماهرة ماكرة يا مستر (جيروم) ، ولكننى أيضًا محترف ، ولست بالسذاجة التى تصوّرها هو ، أو التى ...

بتر عبارته ، قبل أن يكملها ، حتى لا يثير المزيد من غضب (جيروم) ، الذى هتف فى حدة :

ـ وماذا فعلت أيها المحترف العبقرى ؟!

التقط (شتيرن) نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ عرفت من هو الجاسوس السوفيتى .

وانعقد لسان (جيروم) ، من شدة المفاجأة ..

انعقد تمامًا .

* * *

٦ ـ القنـاع ..

● لدقيقة كاملة تقريبًا ، لم يستطع (جـيروم) النطـق بحرف واحد ، من شدة المفاجأة ، التى ألقاها (شتيرن) على مسامعه ، حتى إن هذا الأخير تساءل فى قلق ، عبر موجات اللاسلكى :

ـ مستر (جيروم) .. هل تسمعنى ؟!

انتفض (جيروم) ، منتزعًا نفسه من أثر المفاجـأة ، ليهتف فى انفعال :

ـ من هو يا (شتيرن) ؟! من ذلك الجاسوس ، الذى يعمل لحساب السوفيت .

حمل صوت (شتيرن) كل حزمه وثقته ، وهو يقول :

ـ رجل المخابرات البريطانى (جون أشكروفت) ياسيِّدى .

انتفض جسد (جيروم) مرة أخرى ، وهو يتساءل فى انفعال أكثر :

ـ أنت واثق يا (شتيرن) ؟! إنه اتهام غاية فى الخطورة ، والبريطانيون سيستاءون بشدة ، لو أبلغناهم هذا ، ثم ثبت أننا مخطئين .

قال (شتيرن) فى حزم :

ـ لدى أدلة كافية يا مستر (جيروم) ..

صمت (جيروم) لبضع ثوان أخرى ، وهو يدرس الموقف فى ذهنه جيدًا ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ فليكن يا (شتيرن) .. راقب (أشكروفت) جيدًا ، واستعن بفريق من رجال مكتب (برلين) ، ولكن لا تقدم على أية خطوة مباشرة ، قبل أن أصل إليك .. أمامى ثلاث ساعات فحسب .. هل تفهم ؟!

أجابه (شتيرن) فى صوت خافت ، حمل كل ما اعتمل فى نفسه من ضيق ؛ لمنعه من اتخاذ أية إجراءات حاسمة :

ـ بالتأكيد يا مستر (جيروم) .. بالتأكيد .

أنهى (جيروم) المحادثة ، والتقى حاجباه فى تفكير وهمّ عميقين ، وهو يراجع فى ذهنه كل معلوماته عن (جون أشكروفت) ، رجل المخابرات البريطانى القوى ، الذى يزخر ملفه بانتصارات مدهشة ، ضد السوفيت بالذات ..

هل من الممكن أن يكون هو بالفعل ذلك الجاسوس السوفيتى ؟!

هل ؟!

نفض رأسه فى شدة ، وكأنه يرفض مجرَّد تصديق الفكرة ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره ، قبل أن يخرجه فى هيئة زفرة ملتهبة ، مغمغمًا :

ـ يبدو أن الساعات الثلاث القادمة لن تكفى ، لكل ما ينبغى اجراؤه من اتصالات هاتفية .

نطقها ، وهزَّ رأسه فى أسف ، ثم بدأ اتصالاته .. الحاسمة ..

★ ★ ★

تراجع (جرينهد) فى مقعده ببطء عجيب ، وهو يتطلَّع إلى عينى (شتيرن) مباشرة ، قائلاً فى حذر زائد :

ـ (جون أشكروفت) ؟! مستحيل ! لايمكننى تصديق هذا .. (جون أشكروفت) أكبر عدو للسوفيت ، فى كل أجهزة المخابرات الأوروبية ، ومن المستحيل أن يكون جاسوسًا لهم .

ثم لوَّح بيده ، مستطردًا بشىء من الحدة :

ـ إننى لا أدرى حتى لماذا شككت فى أمره من البداية ؟!

أجابه (شتيرن) فى هدوء مستفز :

ـ ملفه هو الذى جعلنى أشك فى أمره .

لوَّح (جرينهد) بيده مرة أخرى ، قائلاً :

ـ هراء .. لقد راجعت كل الملفات بنفسى ، ولم أجد لمحة واحدة من الشك فى أى منها .. ملفا (روجيه بلموندو) و(جون أشكروفت) بالذات كانا الأفضل ، وعلى نحو مبهر .

أشار (شتيرن) بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ هذا بالضبط ما جعلنى أعتبرهما المشتبهين رقم واحد .

هتف (جرينهد) فى حدة :

ـ أى منطق هذا ؟!

مال (شتيرن) نحوه ، قائلاً :

ـ قل لى أنت : لو أننا زرعنا جاسوسًا ، فى قلب المخابرات السوفيتية ، وأردنا له أن يتبوأ فيها منصبًا رفيعًا ، فما أفضل ما نفعله من أجله ؟! أليس منحه ملفًا زاخرًا بانتصارات مبهرة علينا ؟!

بُهِتَ (جرينهد) لمنطقه ، وعاد يتراجع فى مقعده فى بطء ، مغمغمًا :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

أشار (شتيرن) بيده، قائلاً:

- هذا ما سنفعله نحن، لو تبدلت الأدوار.

ثم نهض من مقعده، وأكمل، وهو يتحرك داخل الحجرة:

- لقد تصور السوفيتى أنه قد أفلت منى، عندما أثار الهرج والمرج هنا فى الفندق، واختفى وسط الاضطراب والفوضى، ولكننى رجل مخابرات محترف، ولقد اتخذت احتياطى لأمر كهذا.

والتفت إلى (جرينهد)، متابعًا فى حزم:

- لقد تركت فريقًا من الرجال، لمراقبة كل الفنادق، التى يقيم فيها رجال مخابرات (أوروبا).

ثم التقط نفسًا عميقًا، وشدّ قامته، مستطردًا:

- ولقد رصدوه يتسلل إلى الفندق، الذى تقيم فيه المجموعة البريطانية.

قال (جرينهد) فى بطء:

- وهكذا تأكدت من أن (أشكروفت) هو الجاسوس المنشود.

ابتسم (شتيرن)، قائلاً:

- بل بلغت شكوكى الحد المطلوب فحسب.

سأله (جرينهد)، فى حذر أكثر:

- المطلوب لماذا ؟!

أجاب فى سرعة وحزم:

- لتركيز المراقبة على بطلكم المغوار (جون أشكروفت).

صمت (جرينهد) بضع لحظات، وهو يتطلع إليه مليًا، قبل أن يقول:

- لن يصدق مخلوق واحد أن (أشكروفت) جاسوس سوفيتى.

قال (شتيرن) فى صرامة شديدة:

- الأدلة ستخرس كل الألسنة.

واتجه نحو الباب، وهو يضيف فى حزم:

- إننا نراقب (رومانسكى) و(أشكروفت)، وعند أول اتصال بينهما، سينحسم الأمر تمامًا.

غادر الحجرة، مع آخر حروف كلماته، وأغلق بابها خلفه فى حزم، فانعقد حاجبا (جرينهد) فى شدة، ولاذ بالصمت بضع لحظات، قبل أن يغمغم فى توتر:

- هذا الأحمق سيفسد كل شىء.

نطقها ، والتقط سمَّاعة هاتفه ، مضيفًا :

ـ ما لم أصلح الأمر بأقصى سرعة ممكنة .

وأدار قرص الهاتف ؛ ليجرى اتصالاً مهمًّا ..

مهمًّا وخطيرًا ..

للغاية !

★ ★ ★

لم يكد (أندريه جيروم) يغادر مطار (جنيف) المحدود ، فور وصول طائرته الخاصة إليه ، حتى استقبله (مورجان جرينهد) فى حرارة ، هاتفًا :

ـ عظيم أنك قد وصلت يا مستر (جيروم) .. الأمر يحتاج إلى تواجدك بالفعل .

صافحه (جيروم) فى توتر ، قائلاً :

ـ اتصالك أقلقنى كثيرًا يا (جرينهد) ، خاصة وأن الكل رفض بشدة احتمال أن يكون (جون أشكروفت) هو الجاسوس السوفيتى ؛ فالرجل مرشح لمنصب نائب رئيس المخابرات البريطانية ، وهذا يعنى أنه قد تم فحص ملفه بمنتهى الدقة .

هزَّ (جرينهد) رأسه فى شدة ، قائلاً :

ـ أنا أيضًا أرفض هذا الاحتمال .

ثم مال نحو (جيروم) ، مضيفًا :

ـ ولكننى لم أكتف بمجرَّد الرفض .

سأله (جيروم) فى اهتمام :

ـ وماذا فعلت إذن ؟!

أشار (جرينهد) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ تلك المحادثة الهاتفية القصيرة ، التى أشار إليها (شتيرن) ، قبل حادثة الفندق .. لقد تعقبتها ، من خلال موظف فى شركة الهاتف هنا ، وعرفت بمن اتصل السوفيتى لحظتها .

سأله (جيروم) ، فى لهفة :

ـ بمن ؟!

مال (جرينهد) نحوه أكثر ، مجيبًا فى حزم :

ـ بأحد رجال وفدنا .

وتراجع (جيروم) فى عنف كالمصعوق ، فالمفاجأة كانت عنيفة وقاسية ..

جدًّا .

★ ★ ★

٧ ـ ضربة أمريكية ..

• انعقد حاجبا رجل المخابرات الأمريكى الألمانى الأصل (رود شتيرن) ، فى توتر بالغ ، وهو يستمع إلى (جرينهد) ، فى وجود (جيروم) ، قبل أن يتساءل فى شىء من العصبية :

ـ لم أكن أعلم أنه من الممكن تعقُّب المحادثات التى أجريت ، عبر هاتف عمومى ، ولكن كل شىء يتطورَّ .. السؤال الآن هو : مَنْ مِنْ أعضاء الوفد الأمريكى هو الجاسوس السوفيتى ؟!

تنهَّد (جرينهد) ، مجيبًا فى أسف :

ـ لا يمكن تحديد هذا .

هتف (شتيرن) فى حدة :

ـ ولكنك قلت إن ...

قاطعه (جيروم) فى صرامة :

ـ أنت تعلم أن هواتف الفندق تتصل كلها بمكتب الاستقبال الرئيسى ، وموظف الاستقبال هو الذى يقوم بتوصيل المحادثة للحجرة المطلوبة ، وكل ما حصل عليه (جرينهد) هو أن

(رومانسكى) قد أجرى اتصاله بالفندق ؛ وأن موظف الاستقبال قد أوصله بحجرة أحد أفراد وفدنا ، ولكن سجل الاتصالات فُقِدَ ، فى أثناء اضطراب الحريق المزعوم ، والموظف يقسم أنه لا يذكر رقم الحجرة بالضبط .. كل ما يذكره هو أنها كانت فى الطابق الثالث ، حيث حجرات رجالنا .

انعقد حاجبا (شتيرن) مرة أخرى ، وهو يغمغم :

ـ هذا يعيدنا خطوتين إلى الخلف .

اعتدل (جيروم) فى مجلسه ، قائلاً فى حزم :

ـ المؤتمر سيتم عقده فى تمام الثامنة ، وسيتم تحديد مكان انعقاده فى السابعة ، ضمانًا للسرية والأمن ، وهذا يعنى أنه أمامنا ست ساعات فحسب ، لكشف الجاسوس واعتقاله ، وإلا فسنضطر إلى إلغاء المؤتمر ، أو تأجيله إلى أجل غير مسمى .

قال (شتيرن) فى غلظة :

ـ لا بد أن أراجع ملفات أفراد وفدنا بنفسى .

هزَّ (جيروم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ليس لدينا كل هذا الوقت .. عندى خطة أفضل .

سأله (شتيرن) فى اهتمام :

ـ أية خطة ؟!

تراجع (جيروم) فى مقعده مرة أخرى ، وهو يقول فى حزم :

ـ سندفع السوفيت إلى اتخاذ الخطوة التى نريدها .

سأله (جرينهد) فى حذر :

ـ أية خطوة ؟!

ابتسم ، مجيبًا :

ـ الاتصال بجاسوسهم .

واتسعت ابتسامته أكثر .. وأكثر ...

وأكثر ..

★ ★ ★

« هل تعتقد أنها خدعة ؟! » ..

ألقى الجنرال (كوبسكى) سؤاله فى اهتمام ، على مسامع (كورباتوف) ، الذى هزَّ كتفيه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ ليس لدى أدنى شك فى هذا .. فقبيل ساعات قليلة من

المؤتمر ، يصل (أندريه جيروم) شخصيًا إلى (جنيف) ، ثم يبلغ أفراد فريقه بتطوير شديد الأهمية والخطورة .. إنها وسيلة بارعة منهم ، لدفع جاسوسنا بين صفوفهم ، إلى السعى للاتصال بنا ، وإبلاغنا ذلك التطوير ، بكل وسيلة ممكنة ، وما دام رجلنا (رومانسكى) هناك ، فأسرع وسيلة هى الاتصال به ، أو مقابلته شخصيًا ، ومع وضع (رومانسكى) تحت مراقبة دقيقة ، سينكشف أمر جاسوسنا حتمًا .

غمغم الجنرال (كوبسكى) :

ـ هذا ما توقعته بالضبط .

ثم تساءل فى اهتمام :

ـ والآن ، ماذا ينبغى أن نفعل ؟!

هزَّ (كورباتوف) كتفيه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لاشىء .. سنترك الأمور تسير ، كما يريد الأمريكيون تمامًا .

سأله الجنرال :

ـ وهل سيفيد هذا خطتنا ؟!

تسلَّل شبح الابتسامة مرة أخرى إلى شفتى (كورباتوف) ، وهو يجيب بمنتهى الهدوء والاقتضاب :

ـ بالتأكيد .

فى هذه المرة ، لم تتلاشَ ابتسامته بسرعة ..

لقد بقيت ، مع قدر من الغموض ..

قدر هائل ..

* * *

فى هدوء عجيب ، غادر رجل المخابرات السوفيتى (تيودور رومانسكى) ذلك الفندق الصغير ، فى قلب مدينة (جنيف) ..

كان متأنقًا بشدة ، على نحو يفوق المألوف ، وهو يتوقَّف أمام الفندق ، ويدسُّ سيجارة أمريكية الصنع بين شفتيه ، ثم يشعلها بتأنٍّ شديد ، وعيناه تجوبان المكان فى سرعة وخبرة ؛ ليتأكَّد من أن أحدًا لا يراقبه ..

ولأنه محترف إلى أقصى حد ، فقد لاحظ ذلك العامل الزائف ، الذى انهمك فى إصلاح كابينة الهاتف ، عند الإفريز المقابل ، وأدرك على الفور أن حذاءه اللامع لا يتناسب قط مع هويته المصطنعة ..

وبابتسامة ساخرة ، لم تستغرق سوى جزء من الثانية ، اعتدل (رومانسكى) فى وقفته ، ثم تحرَّك فى خطوات واسعة

سريعة ، نحو ركن الفندق ، ومن هناك استقل واحدة من سيارات الأجرة ، انطلقت به على الفور ، وهو يطلب من سائقها ، بصوت مرتفع أكثر من اللازم ، الاتجاه إلى وسط المدينة مباشرة ..

وعندما راحت السيارة تقطع شوارع المدينة السويسرية الهادئة ، جلس (رومانسكى) فى مقعدها الخلفى ، دون أن يلتفت وراءه لحظة واحدة ، وهو واثق تمام الثقة ، فى أن سيارة ما تتبعه كظله ..

وفى أكثر مناطق وسط المدينة ازدحامًا ، اعتدل (رومانسكى) فى مقعده فجأة ، وهتف بالسائق ، وهو يلقى إليه عملة ورقية كبيرة :

- توقَّف هنا .

وقبل حتى أن تتوقَّف السيارة تمامًا ، دفع (رومانسكى) بابها ، ووثب خارجها ، وانطلق يعدو عبر الشارع ، متجاهلا أبواق الاحتجاج والغضب ، من السيارات الأخرى ، حتى بلغ الإفريز المقابل ، واندفع عبر مدخل مركز تجارى شهير ..

ودون أدنى تردُّد ، قفز أحد رجال مكتب (برلين) ، التابع للمخابرات الأمريكية ، من السيارة التى تتبع السوفيتى ، واندفع خلفه نحو المركز التجارى ..

ولكن ذلك المركز التجارى كان ضخمًا أكثر مما ينبغى ، وكان له أكثر من ستة مداخل ومخارج ..

لذا فقدَ فَقَدَ الأمريكى أثر (روماتسكى) تمامًا هناك ..

وعندما أبلغ (شتيرن) هاتفيًا ، أجابه هذا الأخير ، فى هدوء عجيب :

ـ لا عليك .. عد إلى موقعك ، حتى إشعار آخر .

وعندما أنهى (شتيرن) المحادثة ، سأله (جيروم) فى اهتمام :

ـ هل يسير كل شىء وفقًا للخطة ؟!

أومأ (شتيرن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. السوفيتى يتصوَّر الآن أنه قد أفلت من المراقبة ، بمراوغته رجلنا ، داخل المركز التجارى الضخم ، ولن يخطر بباله قط أننا قد حصرنا كل الأماكن المزدحمة ، التى تصلح للمراوغة ، ووضعنا رجالنا عند مداخلها ومخارجها ، و...

قبل أن يتمَّ حديثه ، ارتفع رنينِ الهاتف بغتة ، فوثب (شتيرن) يختطف سمَّاعته ، قائلاً فى حزم ، لم يستطع إخفاء نبرة الانفعال به :

ـ هل رصدتموه ؟!

انتظر لحظة ، وهو يستمع فى انتباه كامل ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ نحن فى الطريق .

قالها ، وأنهى المحادثة ، وهو يدير عينيه إلى (جيروم) ، قائلاً :

ـ رجالنا حددوا موقع السوفيتى ، ويقولون : إنه سيلتقى بذلك الجاسوس بالفعل .. الجاسوس الذى يعمل بين صفوفنا .

وانتفض جسد (جيروم) بعنف ، وهو يهبّ من مقعده ، استعدادًا للجولة التالية ..

الجولة الحاسمة ..

والأخيرة .

★ ★ ★

٨ ـ وانكشفت الأوراق ..

● فى هدوء عجيب ، وقف رجل المخابرات السوفيتى (تيودور رومانسكى) ، أمام تلك النافورة الأثرية الجميلة ، فى أشهر ميادين (جنيف) ، مرتديًا حُلَّةً بالغة الأناقة ، وكأنما لا يشغله أى شىء فى الوجود ..

ثم ظهر ذلك الرجل ، عند طرف الميدان البعيد ..

رجل المخابرات الأمريكى (جيرارد) ، الذى بدا متوترًا على نحو ملحوظ ، وهو يتجه إلى حيث يقف (رومانسكى) مباشرة ..

ومن بعيد ، توقَّفت سيارة (جيروم) و(شتيرن) فى ركن خفى ، وتطلَّع الأوَّل إلى رجل المخابرات الأمريكى ، عبر منظاره المقرِّب ، وهو يغمغم فى ضيق متوتر :

ـ (جيرارد) ؟! من يصدِّق هذا ؟! ذلك الرجل بدا لى دومًا مثالاً للكفاءة والنزاهة ، ولم أتصوَّر لحظة واحدة ، أن يكون جاسوسًا ، لأية جهة كانت .

انعقد حاجبا (شتيرن) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا يثبت أن كل شىء جائز ومتوقَّع ، فى عالمنا هذا .

زفر (جيروم) فى مرارة ، متمتمًا :

ـ هذا صحيح .

سأله (شتيرن) :

ـ هل سنلقى القبض عليه الآن ؟!

صمت (جيروم) بضع لحظات ، ليدير الأمر فى رأسه جيدًا ، قبل أن يغمغم ، فى شىء من العصبية :

ـ إلقاء القبض على أحد رجالنا ، قبيل انعقاد المؤتمر بساعتين فحسب ، كفيل بسحق الثقة فى فريقنا تمامًا ، ثم أن ما لديه هو فقط ما أخبرتهم به ، وهو أمر زائف كما تعلم ؛ لذا فأفضل ما يمكن فعله ، هو ترك الأمور تسير على ما هى عليه ، ثم نتعامل مع رجلنا بأسلوبنا .

تساءل (شتيرن) :

ـ هل سنعيده إلى الولايات المتحدة ؟!

مطَّ (جيروم) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ ليس أمامنا سوى هذا ؛ فلابد أن يخضع لاستجوابات عنيفة ، حتى نعتصر كل ما لديه ، فمن يدرى ؟! ربما كان هناك آخرون .

شهق (شتيرن) ، هاتفًا :

ـ آخرون ؟! هل تعتقد فى احتمال أن يكون السوفيت قد زرعوا شبكة من الجواسيس فى نظامنا ؟!

قال (جيروم) فى حزم :

ـ أنت قلتها منذ لحظات .. كل شىء جائز ومحتمل فى عالمنا هذا .

نطقها ، وعيناه تتابعان (جيرارد) ، الذى عبر الميدان الواسع ، متجهًا نحو رجل المخابرات السوفيتى ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، توحى بأنه يستعد لاستقبال صديق مهم ، و...

وفجأة ، برزت تلك السيارة السوداء الضخمة ..

سيارة وثبت فجأة من شارع جانبى ، وانطلقت بسرعة تفوق ضعف أقصى سرعة مصرَّح بها داخل المدينة ، وانقضت على رجل المخابرات مباشرة ..

على رجل المخابرات الأمريكى ..

وانطلقت صرخات وشهقات المارة ، وتوقَّف (جيرارد) لحظة ، انعقد خلالها حاجباه فى شدة ، ثم حاول أن يتراجع فى سرعة ، و...

ولكن الاصطدام كان عنيفًا ، قاسيًا ، ساحقًا ..

وإلى أقصى حد ..

وعلى نحو مخيف ، طار جسد (جيرارد) فى الهواء ، وتطايرت الدماء من بين شفتيه ، لتتناثر على المارة ، الذين تواصلت صرخاتهم من هول الموقف ، قبل أن تمتزج بصوت ارتطام جسد رجل المخابرات الأمريكى بالأرض ، ووقع أقدام (رومانسكى) ، الذى انطلق نحو السيارة السوداء الضخمة ، ووثب داخلها ، وانطلق معها نحو شارع آخر ، ليختفيا عن العيون والأبصار ..

واستغرق ذهول رجال المخابرات الأمريكيين لحظة واحدة ، اندفعوا بعدها من مكامنهم ، خلف السيارة السوداء الضخمة ، وخلف (رومانسكى) ..

ولكن كل شىء كان قد انتهى ، واختفى ..

تمامًا ..

* * *

فى تمام الثامنة ، ووفقًا للجدول المعد مسبقًا ، تم عقد مؤتمر الأمن السرى ، وحضره أفراد كل وفود أجهزة المخابرات الأوروبية ، مع وفد المخابرات الأمريكى ..

وفى العاشرة والنصف تقريبًا ، أعلن الكل موافقتهم على الخطة الأمريكية ، لمقاومة المد الشيوعى فى (أوروبا) ، وتحجيم الفكر الماركسى عالميًا ..

ومع دقات منتصف الليل ، انتهت مناقشة كل النقاط الفرعية ، ووقف الكل دقيقة واحدة ، حدادًا على رجل المخابرات الأمريكى (جيرارد) ، الذى راح ضحية حادثة سير ، فى أشهر ميادين (جنيف) ..

وفى اللحظة نفسها تقريبًا ، أطلق الكولونيل (كورباتوف) ضحكة ظافرة عالية ، وهو يقول لرئيسه الجنرال (كوبسكى) :

ـ كل شىء سار وفقًا للخطة تمامًا .. الميجور (رومانسكى) نجح فى تشتيت انتباههم طوال الوقت ، وأبعدهم تمامًا عن الهدف الحقيقى ، ثم جذبهم فى النهاية إلى الميدان ، وانتظر حتى وصل رجل مخابراتهم (جيرارد) ، الذى تلقى مكالمة هاتفية ، تطلب منه مقابلة ضابط مخابرات سوفيتى ، يحمل معلومات خطيرة ، تهم المخابرات الأمريكية ، وأمام عيون الجميع ، صدمت سيارتنا (جيرارد) هذا ، وأزاحته من الصورة ، بعد أن تصورّ الأمريكيون أنه الجاسوس الذى يبحثون عنه ..

واتسعت ابتسامته ، ربما لأوّل مرة فى حياته ، وهو يضيف :

ـ هكذا تصورّ الأمريكيون أنهم قد كشفوا أمر الجاسوس ،

الذى تخلصنا منه نحن ، حتى لايكشف لهم أسرارنا ، وانتهت العملية بالنسبة لهم ، وأقاموا مؤتمرهم الأمنى السرى ، وهم مطمئنين تمامًا .

وافقه الجنرال (كوبسكى) بإيماءة من رأسه ، قبل أن يشير بسبَّابته ، قائلاً فى صرامة :

ـ كانت خطة خطيرة للغاية يا كولونيل ، فلو أن الأمريكيين فقدوا أثر (رومانسكى) ، بعد خروجه من ذلك المركز التجارى ، لفشلت العملية كلها .

هزّ (كورباتوف) كتفيه ، قائلاً :

ـ لقد اعتمدت على براعة الأمريكيين .. ثم إن وجود (رومانسكى) فى قلب أكبر وأشهر ميادين (جنيف) ، كان سيجذبهم إليه حتمًا ، ليشهدوا بأنفسهم الفصل الأخير من اللعبة .

مطّ الجنرال شفتيه ، قائلاً :

ـ مازلت أصرّ على أنها كانت لعبة بالغة الخطورة ، فذلك الأمريكى النازى المنشأ ، كاد يكشف أمر عميلنا البريطانى (جون أشكروفت) ، دون أن يدرى .

هزَّ (كورباتوف) رأسه ، قائلاً :

ـ لقد تعاملنا مع هذا الموقف ، على نحو سليم تمامًا ، ومن المؤكَّد أنه ليست لديهم ذرة واحدة من الشك فى (أشكروفت) الآن .

غمغم الجنرال ، وهو يهم بالانصراف :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

قالها ، واتجه نحو باب الحجرة ، ثم توقَّف ، واستدار إلى (كورباتوف) ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ ولكن هل تعتقد أنه من الحكمة أن يتصل بنا (أشكروفت) الآن ؛ ليبلغنا بما حدث فى المؤتمر ؟!

هزَّ (كورباتوف) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلاً بالتأكيد .. إنه محترف ، وسيدرك جيِّدًا أنه لا ينبغى له أن يفعل هذا .

ثم عاد يبتسم ، مضيفًا :

ـ ثم إن أخبار المؤتمر ستصلنا .. من مصدر آخر ..

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة إلا الربع صباحًا ، بتوقيت (جنيف) ، أغلق (مورجان جرينهد) رئيس وفد

المخابرات الأمريكية ، باب حجرته فى إحكام ، ثم التقط حقيبته ، وفتح جيبًا سريًّا فيها ، أخرج منه جهاز لاسلكى صغير ، وراح يرسل عبره برقية شفرية طويلة إلى جهاز المخابرات ، الذى ينتمى إليه فعليًّا ، ويعمل لحسابه منذ أمد بعيد ..

جهاز المخابرات السوفيتى .

★ ★ ★

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب



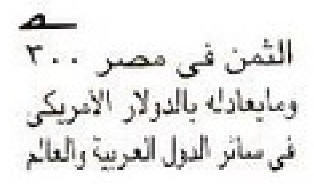


د. نبيل فاروق

صفحة

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات







المؤسسة العربية الحديثة